عبد العزيز جنكيز خان

تُركسْتان
.... قلب آسيا

obeikandl.com

الكتاب: تُركستان.. قلب آسيا

الكاتب: عبد العزيز جنكيز خان

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٠٨٢٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N.978-977-291-993-3

جنكيز خان، عبد العزيز.

تركستان.. قلب آسيا/ عبد العزيز جنكيز خان. — ط١. — الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٠.

١٧٦ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٣ — ٩٩٣ — ٢٩١ — ٩٧٧ — ٩٧٨

١ - تركستان الروسية — تاريخ.

أ - العنوان ٩٥٨.٤

obeikandl.com

مقدمة

على المرء فى هذه الدنيا واجبات ترتبط بذمته، وتتحقق بها سعادة دنياه وآخرته، وأهمها فى حياة الشخص واجبان:

واجبه الدينى وواجبه الوطنى.... ولقد كنت منذ نشأتى أشعر بإيمان عميق يدفعنى إلى أداء هذين الواجبين، فرأيت أن خدمة بلادى تعد وفاءً بهما، وقيامًا بحقهما فى وقت واحد.

وذكرت أننى إذا وفقت إلى إخراج كتاب باللغة العربية فى تاريخ تركستان، فقد خدمت الدين والوطن، وأرضيت الله والأمة.

إن تاريخ الترك لن يعرف منفصلاً عن تاريخ الإسلام، كما أن الإسلام لا يمكن استيفاء عصوره وأجياله بحثًا واستقصاءً بغير تاريخ الأتراك، فكلا التاريخين مرتبط بالآخر ومتمم له – فهما كالروح والجسم لا ينفصلان، وكالنور والحرارة لا يفترقان –!.!.

قمت بهذا الواجب فعلاً، فصنفت كتابًا يشتمل على مجلدين كبيرين عن بلادى منذ بزوغ فجر تاريخها إلى اليوم وأطلقت عليه اسم « التركستان الخالدة ». وكنت أحاول أن أخرجه للناس فى صورته الكاملة، فحالت أزمة الورق والظروف الحاضرة دون الوفاء بذلك، فآثرت التريث والانتظار... حتى شرفتنى "الجمعية الخيرية التركستانية" و"الجالية التركستانية بمصر" بتكليفى بإصدار رسالة موجزة عن تاريخ التركستان، فتلقيت هذه الرغبة النبيلة بما هى جديرة به من تلبية واستجابة؛ ثم توالت الرسائل من تركستان تتعجل عودتى إلى الأوطان، وأنا بدورى لست أقل شوقًا إلى الوطن؛ من الوطن حين يدعونى إلى الاستنارة بضيائه والحياة السعيدة بين أرضه وسمائه.....

وردت على الرسائل الكريمة من أشقائى: (فضيلة المفتى مطيع

الله مخدوم، وصاحبا العزة عبد الحميد مخدوم وأى مخدوم)، فكأنها صورة الوطن بدت لعينى، ومثلت أمامى، ولما كنت مضطرًا إلى تلبية الرغبتين، والمسارعة إلى تحقيق الواجبين، فقد نشرت هذه الرسالة تحقيقًا للغرض الدينى والوطنى، آملاً أن يجدها المسلم المطلع عليها مشتملة على جملة صالحة من تاريخ تركستان، فإن هذا الباب من التاريخ يقع من المراجع فى صورة موزعة، ولا يكاد الباحث يقع فى المصادر العربية منها على كتاب شامل لأجيال تركستان كلها إلى العهد الأخير. ففى هذه الرسالة على إجمالها وصغر حجمها عجالة صالحة يجد فيها القارئ صورة مصغرة لعصور تركستان التى سجلتها على وجه من الاختصار، وهى تعرض على القارئ الأحداث والصور وتكشف له فى مشاهدها عن الملوك والأسر.. حتى إذا أقبل هذا العصر يحمل فى طياته احتلال الروس لتركستان الغربية والصين لتركستان الشرقية.

انتهى الكتاب وانطوت صحائفه مؤقتًا – فلعلى عائد إلى استكمال هذا البحث بالحصر، واستيعاب ما اشتملت عليه حوادث هذا العصر، فمن أراد بعد ذلك استيفاء المعلومات الضافية عن تاريخ تركستان، ففى « تركستان الخالدة » غناء وشفاء. ولن أدع هذه المقدمة تمر قبل أن أختتمها بشكر الجمعية الخيرية التركستانية، والجالية بأكملها – راجيًا الله عز وجل أن يمنحنى السداد فى هذا الجهاد العلمي، وأن يكتب السعادة والتوفيق لشعب تركستان؛ فهو ولى العناية وهو المستعان.

عبد العزيز جنكيزخان

ابن قاضى القضاة الشرعية فى تركستان الشرقية

(العلامة داملا عاشور اعلم آخونود البوكورى)

«الينكحصارى رحمة الله عليه»

تمهيد

تركستان هى تلك البلاد الجميلة الخضراء التى تشقها الأنهار الكثيرة؛ الغزيرة المياه بمواردها العذبة الصافية، وتكتنفها الهضاب والنجاد، وبها آثار أول مدنية، وأقدم حضارة.... تشهد لآبائنا وأجدادنا بما كان لهم من نبوغ فى الفن، وعراقة فى المجد والسلطان، وتقوى فى نفوسنا الروح القومية، والاعتزاز بذكريات الماضى المجيد.

لقد كانت تلك البلاد مهاد الأتراك، ومغرس دوحتهم، ومنبت روضتهم، ومنشأ أصولهم وفروعهم، وموطن طارفهم وتليدهم، ومستقر قديمهم وجديدهم، منها بدأ مجدهم، وإليها ينتهى ميثاقهم وعهدهم.

بدأت نشأتهم الأولى على أرضها الخضراء، وتحت أديمها الصافى الكريم، فتكونت وحدتهم، وقامت دولتهم، وانبعثت نهضتهم، واستقامت حضارتهم، وسجلت فى أزهى صحائف التاريخ ومدنيته.

عاشوا فى المهد السخى بأنعم الله، وذلك البساط المخضر كأنه قبس من جنة الله، فانعكست مناظره البديعة على مشاعرهم، وانطبعت صورته فى نفوسهم، وتمثلت حقيقته فى سجاياهم.

ثم تعاقبت الدهور والأجيال، وهى شاهدة لهم بالسيادة، مقرة لهم بالأصالة، فى السياسة والقيادة، فإذا شاءت الأقدار للعشيرة

الحاكمة منهم أن يجرى عليها حكم التغيير، نجمت من أعرقهم عشيرة أخرى، لتعيد ذلك المجد الوفير، حتى يزداد فى كل دولة إشراقًا ويملأ أوطانًا وآفاقًا.

كانت تركستان قبل التاريخ وبعده رافعة العلم فى آسيا ملكًا وسلطانًا، ضاربة فى أعراق القدم بقدم راسخة فى العز والفخار، وظهر فى سماء التاريخ من ملوكهم وخواقينهم نجوم ساطعة، وأبطال جبابرة – استطاعوا أن يبسطوا ظل عظمتهم على القارات النائية والممالك المترامية، وقد أثبت الباحثون من علماء الآثار والتاريخ: أن تركستان أول بلاد اكتشفت فيها زراعة الحبوب وتألّف الحيوان، وكان الأتراك فيها يعرفون الزراعة قبل التاريخ، وهم الذين اقتادوا الخيول والأغنام وغيرها أول مرة تحت إدارة الإنسان.

ومن الوثائق التى تدل على أن تركستان كانت مهد الحضارات البشرية ما اكتشفته بعثة الحفائر والتنقيب الأمريكية سنة ١٩٠٤م، فقد عثرت البعثة المذكورة على آثار تاريخية فى شرقى بحر قزوين قريبًا من مدينة (عشق آباد). تدل الآثار المذكورة، على أن تركستان لعبت فى المدنية دورًا هامًّا، وسبقت بها سائر سكان البسيطة، وقد شهد رئيس البعثة المذكورة العالم الأثرى المشهور الأمريكى (بومبللى Pumpelly)، بعدما درس الآثار التى عثر عليها، وتناولها بالبحث العلمى، بأن مدنية العصر الحجرى الجديد عاشت فى التركستان قبل تسعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كما أن تربية الحيوان وجدت بها قبل ثمانية آلاف قبل الميلاد، والصناعات المعدنية قبل ستة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد عثر فى القسم الشمالى من تركستان على آثار تاريخية فى بعض قبور قدماء الأتراك، وفى القلاع التاريخية القديمة، وهذه الآثار تشهد

بأن تركستان لعبت أقدم دور فى المدنية.

وقد كتب بعض علماء أوربا بإعجاب عن المجموعة الأثرية التاريخية الموجودة الآن فى متحف لندن، والآثار التاريخية التركستانية التى أتت بها بعثة ألمانية من مدينة (تورفان Turfan)، فى رحلاتها العلمية الأربعة سنة ١٩٠٢م، و١٩٠٤م، و١٩٠٧م، و١٩١٤م، واستوعبت فى متحف برلين وهذه الآثار التى تشغل جناحًا خاصًا فى المتحف المذكور؛ والآثار التى توجد الآن فى متاحف «لينجراد» و«موسكو» و«تومسك» و«كريستيارسك» تدل على أن قدماء الأتراك كانوا بارعين فى الفنون الجميلة، والصناعات الدقيقة التى تشهد بمبلغ تقدمهم ومهارتهم فيها.

obeikandl.com

التقسيم السياسى

هذه البلاد الشاسعة الأطراف، الضاربة كما ترى بعرق أصيل فى أقدم مدنيات الدنيا، تمتعت بالاستقلال والحرية الكاملة التامة فى جميع أجيال التاريخ قبل الإسلام وبعده، ولم تتغير وحدتها السياسية واستقلالها إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى حيث وقع بعضها فى أيدى الصين والبعض الآخر فى أيدى الروس. أما القسم الذى استولت عليه الصين فيعرف: بالتركستان الشرقية، وتبلغ مساحتها (١,٥٠١,٠١٣) كيلو مترًا مربعًا ويقدر أهلها بنحو اثنى عشر مليونًا من السكان.... والقسم الثانى الذى استولت عليه روسيا يدعى بالتركستان الغربية وتبلغ مساحة أرضها (٤,١٠٦,٠٠٠) كيلو مترًا مربعًا، وتشتمل على ستة جمهوريات سوفياتية شيوعية حمراء... وهى جمهوريات أوزبكستان وتركمنستان وتاجكستان وقازاقستان وقيرغزستان وقاراقالباغستان، ويبلغ عدد سكانها وفق إحصاء ١٧ يناير سنة ١٩٣٩م ١٧,٦٢٧,٧٦٠ نسمة، وبذلك يكون مجموع سكان التركستان الشرقية والغربية حوالى ثلاثين مليونًا، فإذا ضمت إليها الأجزاء التركستانية الصغيرة التابعة لإيران وأفغانستان، يبلغ المجموع أكثر من خمس وثلاثين مليونًا من الأنفس، كلهم من سلالة الترك، بل هُم أصل الترك – يتكلمون باللغة التركية المحضة، وتجمعهم وحدة الدم، ووحدة اللّغة، ووحدة الدين والعقيدة

والمذهب، وكذا وحدة الأخلاق والتقاليد، ووحدة الجنس والتاريخ، ووحدة المصالح والأمانى والآمال.

فتركستان هى البلاد الوحيدة فى الدنيا من حيث أن لغة أهلها واحدة، وكذلك دينهم، بل ومذهبهم الفقهى، وأيضًا جنسهم وعاداتهم. كل ذلك يجرى فى البلاد على نسق واحد مع اتساع رقعتها، وانبساط صفحتها.

ومهما كانت قوة الفاتحين والمستعمرين، فإنه لم يستطع ولن يستطيع غالب فى الغرب، ولا قاهر فى الشرق أن يمزق وحدتها المعنوية، وقوتها الروحية – وإن مزقها الاستعمار تمزيقًا شكليًا فى الظاهر، وحاول إطفاء نورها، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

تركستان

فالبلاد إذن بلاد تركية يسكن فيها شعب تركى، ويتكلم سكانها اللغة التركية منذ أقدم عصور التاريخ، ويتدين الجميع بالإسلام، ويتفقهون على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان رحمه الله.

وتمتد مساحة البلاد من بحر قزوين ونهر أورال غربًا، إلى سد الصين شرقًا، ومن سيبريا ومنغوليا شمالاً، إلى بلاد إيران وأفغانستان والهند والتبت جنوبًا. وتبلغ مساحتها الكلية ٥,٤٠٧,٠١٣ كيلو مترًا مربعًا، أى أنها أكبر من مجموع مساحة أفغانستان وإيران وتركيا والعراق والمملكة العربية السعودية جميعًا.

وكانت تتألف هذه البلاد عند جغرافى العرب واليونان من أقاليم «خوارزم» و«صغد» و«ما وراء النهر» و«مرغيانة» و«إريانة» و«خرقانيا» و«باقتريا» و«أشروسنة» و«سيكيتيا» و«سريقا» وهى نفس البلاد التى نقرأ عنها كثيرًا فى المؤلفات الإسلامية القديمة.

وقد اشتهرت تركستان منذ القدم بخصوبة أراضيها الزراعية، وجمال مناظرها الطبيعية، وكثرة البحيرات والأنهار، وعلو الجبال المكسوة بالخضرة والأزهار، المتوجة بالثلوج الأبدية القرار، الدائمة الاستمرار. كما اشتهرت كذلك بقصباتها الجميلة، وقلاعها القديمة، ومدنها الباهرة، وقصورها الفاخرة، وكذا معادنها الوافرة، ومعاهدها الزاهرة، ومساجدها العامرة، وحدائقها الغناء، وآثارها الشهيرة، وسهولها الواسعة، وكرومها الشاسعة وأزهارها النفيسة، وأثمارها الشهية.

أنهارها:

تجرى خلال هذه البلاد أنهار كثيرة عذبة، صافية المرآة جميلة المرأى، أهمها «جيحون» و«سيحون» فى التركستان الغربية، ونهرى «إيلى» و«تاريم» فى التركستان الشرقية.

وهذه الأنهار وما يتفرع منها من الترع والنهيرات قد ربطت البلاد بسلسلة فضية، تنبت إلى جانبها الجنات الخضراء، والمروج الفيحاء.

صحاريها:

وهناك توجد كذلك صحارى واسعة شاسعة، مثل صحراء «تكلامكان» وصحراء «أوست يورت» وصحراء «قزيل قوم» وصحراء «آق قوم» ومع أنها غير مأهولة بالسكان فإنها مستودع لكنوز حافلة بالآثار والتحف القديمة.

جبالها:

أما الجبال فى تركستان فإن الأهمية العظيمة فيها ترجع إلى سلسلة جبال « تيانشان » (تنكرى تاغ) (Tanri Tag) وهى العمود الفقرى لكيان البلاد جميعًا، ومنها تتحدر السيول المنهمرة التى تكون هذه الأنهار الأربعة الفضية. والمركز العام لهذه السلسلة، وأعلى نقطة فيها هو قمة «خان تكرى» (Han Tanri) يبلغ ارتفاعها ٧٣١٥ مترًا وهى كتلة جبلية سفوحها جنات خضراء، وأوساطها ثلوج لؤلؤية بيضاء، وأما أعاليها فكتل صخرية سوداء.

مدنها:

من أهم مدن تركستان « طاشكند » ويبلغ عدد سكانها ٥٨٥،٠٠٥ و«سمرقند» ١٣٤،٣٤٦ نسمة، و«بخارى ٥٠،٣٨٢ نسمة، و«خوقند» ٨٤،٦٦٥ نسمة، و«أنديجان» ٨٣،٦٧٧ نسمة، و«نمنكان»

٧٧,٣٥١ نسمة، و«عشق آباد» ١٢٦,٥٨٠ نسمة و«جيمكند» ٧٤,١٨٥ نسمة «سه مه ى» (Semey) ١٠٩,٧٧٩ نسمة، و«قاراغاندى» ١٦٥,٧٧٩ نسمة، و«ألما آتا» ٢٢٠,٥٢٨ نسمة «بشكك» ٩٢,٦٥٩ نسمة، و«جار جوى» ٥٤,٧٣٩ نسمة كل ذلك على وجه التحديد وفق إحصاء ١٧ يناير سنة ١٩٣٩م، - ومدينة كاشغر نحو ٢٥٠,٠٠٠ نسمة، و«ياركند» ٤٠٠,٠٠٠، و«خوتن» ١٥٠,٠٠٠ نسمة، و«آقسو» ٧٠,٠٠٠، و«كوجار» ٧٠,٠٠٠، و«كيريا» ٣٠,٠٠٠، و«غولجا» ٩٠,٠٠٠، و«أورومجى» ٣٥,٠٠٠، و«بوكور» (Bugur) ٣٠,٠٠٠، و«كورلا» ٢٩,٠٠٠، و«طورفان» ٢٥,٠٠٠، و«آلتاى» ٢٥,٠٠٠ وهذا على وجه التقريب.

السكان وعاداتهم:

أما سكانها الأتراك فهم أمة أمينة لمبادئها، قوية فى إيمانها متحدة فى أمانيها يحس حاضرها بما يشعر به باديها.

تشتمل نفوسهم على أجل صفات الكرم والشهامة واعتداد بالعزة والكرامة، فهم يحبون الغريب إذا قدم إليهم، ويبتهجون برؤية الضيف ويستعدون فى كل لمحة للدفاع عن الوطن كلما نودوا إلى الجهاد، وهم لا يعرفون معنى للجبن والتردد، وفيهم روح الحمية والإباء، وشعارهم العزيمة والمضاء، وقبلة الجميع خدمة الوطن وأعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيل الله، وهم معروفون منذ القدم بحبهم لوطنهم وحريتهم، وعندما تسمعهم ينشدون أناشيدهم الحماسية تعرف جيداً - كم يحب التركستانيون الحرية ويعشقون الاستقلال ولقد تجلى فى تاريخ هذه الأمة العزيزة صدق قتيبة بن مسلم الباهلى البطل الإسلامى، وفاتح التركستان حيث يقول: «إن التركى أحن إلى وطنه من الإبل إلى معاطنها».

تركستان قبل الإسلام

الدولة الهونية التركية

كان التركستانيون منذ القدم يعيشون فى عز خالد ومجد تالد، يميلون بطبيعتهم إلى الغزو والفتح، ويتغنون بالفروسية والفخر بالنصر، والاستشهاد فى ساحات الوغى، ويفتحون بلادًا كثيرة، ويهاجرون إليها، فيحكمونها ويبسطون نفوذهم عليها، وينشرون فى ربوعها مطارف حضارتهم حتى خفق على أرجائها علم الأتراك عهدًا طويلاً كانت فى غضونه كلمتهم أعلى الكلمات، ودولتهم أمنع الدولات، وحضارتهم أرقى الحضارات، ولغتهم أسمى اللغات.

ولقد قامت منهم فى أزمنة مترامية فى القدم دولة عظيمة تسمى: «دولة الهون». وفى المصادر الصينية (هيونج نو)، وكان تاريخ هذه الدولة فى مضمار التقدم يتاخم تاريخ الصين ويسير معها جنبًا إلى جنب، وتدل على ذلك الوثائق الصينية القديمة التى يرجع عهدها إلى ثلاثة عشر قرنًا قبل الميلاد، وكانت هذه الدولة التركية دولة قوية منظمة تعد من أكبر الدول الشرقية، كما أن حضارتها تعد من أرقى الحضارات الآسيوية فى ذلك العصر.

وكان الصينيون دائمًا فى فزع وخوف من هذه الدولة التركية العظيمة التى كانت تهددها منذ الأزمنة الأولى، ...

وقد بنى فغفور الصين «شى - خوانغ - تى» السد الصينى الكبير لصد هجمات هؤلاء الأتراك الهون. ولكن لم يجدهم نفعًا

إذ دخلوها مرارًا وحكموها قرونًا. وبلغت هذه الدولة التركية الهونية فى عهد الخاقان «مته خان» بن الخاقان «تومان خان» أوج عظمتها، إذ انضوت ست وعشرون دولة تركية تحت عَلم هذه الإمبراطورية... وقام لأول مرة بناء الوحدة التركية العظيمة، تضم أواصر جميع الشعب التركى القاطن من بحر اليابان إلى بحر قزوين، ونهر فولجا وجبال أورال – كما أن إمبراطور الصين اضطر إلى دفع إتاوة سنوية، بعد انهزام الجنود الصينية أمام الجيوش التركية الزاحفة فى معركة حاسمة وقعت سنة ١٩٩ ق.م... وما زالت تلك الإمبراطورية العظيمة فى أوج عظمتها وإشراق حضارتها حتى منتصف القرن الأول الميلادى؛ ولكنها انقسمت سنة ٤٨م فأصبحت دولتين:

إحداهما يقع شمال صحراء الغوبى، حيث تتكون دولة (الهون الشمالية)، ...

ثم القسم الجنوبى لتلك الصحراء، حيث تتألف دولة (الهون الجنوبية)....

ثم لم تلبث أن اتفقت الصين بعد ذلك مع الهون الجنوبية وانضمت إليها قبائل تركية أخرى؛ وبعض قبائل «سيانى» واشترك جميعهم فى القضاء على دولة الهون الشمالية سنة ٩٣ ميلادية؛ فهاجر كثيرون منهم إلى سواحل بحر قزوين، وشواطئ نهر أورال، حيث أسسوا هناك دولتهم من جديد فسميت بدولة الهون الغربية.

دولة الهون الغربية

لم تمض عليهم فى هذا الوطن الجديد إلا مدة يسيرة حتى أخضعوا جميع القبائل المتوطنة فى حدود أوروبا من الأتراك وغيرهم؛ ثم بسطوا نفوذهم؛ ووسعوا نطاق ملكهم صوب الغرب، وسيطروا على الأقاليم الواسعة التى يطلق عليها اليوم اسم «روسيا الجنوبية» سنة ٣٧٥م بقيادة خاقانهم «بالامير» ثم تغلبوا على قبائل «القوط» التى كانت تبسط نفوذها على تلك البلاد.

وبهذا عادت أوروبا الشرقية التى كانت من مواطن الترك منذ بزوغ فجر التاريخ إلى أصحابها الأتراك، وبهذا أصبحت الإمبراطورية نافذة السلطان فى هذه الأقطار الشاسعة التى كانت تمتد من تركستان إلى نهر طونا.

وكانت فرق الجنود التركية تتألف من فرسان أبطال، ولم تكن فى ذلك العصر بأوروبا أمة تستطيع أن تجد سبيلاً إلى مقاومة هذه الجيوش المستبسلة التى لم يكن يقف فى طريقها نهر ولا جبل، مما ملأ القارة الأوروبية رعبًا وهلعًا، وكان بها إذ ذاك دولتان قويتان تنازلان الأتراك، وهما: الدولة البيزنطية؛ ودولة روما الغربية. فاستمر الهون الأتراك فى غزوهم وفتوحاتهم، حتى امتدت مطامعهم إلى الدولة الرومانية الشرقية، التى كانت تحاول أن تصد هجومهم بما وسعها من الوسائل السلمية، وبذل الرشوة والتظاهر بالصداقة، قصد الاستفادة من هذه الدولة الباسلة ضد أعدائها؛ وقد ساعدتها هذه الدولة التركية مساعدة مادية وأدبية ولكن

البيزنطيين رغم هذه الاعتبارات والمساعدات كانوا يحرضون الشعوب التابعة للأتراك على أن يشهروا سيوف العداوة فى وجههم لاسترداد استقلالهم، وتخلصًا من إمبراطوريتهم التى ما تزال آخذة فى النمو والازدياد يومًا بعد يوم، وبهذا فسد ما بينهم وبين الأتراك من صلات المودة والتعاون.

الإمبراطور آتيلا:

ولما تبوأ آتيلا على العرش، وتملك بيديه زمام الأمور وزعامة الترك وقيادة الجيش، أخذ قبل كل شىء يفكر فى تنظيم الخطط لتحقيق الآمال البعيدة فتوجه لاحتلال موسيا[1]، ثم استولى على «سيرميوم» عاصمة بانونيا القديمة، وتغلب على البيزنطيين فى موقعة عظيمة أمام قلعة «مارسيانوبول»[2] ووضع الأتراك أيديهم على الأرض الواسعة من مضيق الدردنيل وجوار استبول إلى ترموبيل، ووقع فى أيديهم عدد لا يحصى من الأسرى، ومقادير عظيمة من الغنائم.

ولجأ البيزنطيون إلى التماس الصلح بعد هذه الهزيمة المنكرة؛ وانعقد الصلح فى «مارغوس» لصالح الترك، وأصبحت الدولة البيزنطية فى حكم المستعمرة التابعة للدولة الهونية التركية.

وبهذا الفتح الباهر، رفرف علم تركستان على عواصم أوروبا وأخضع فيها الدول المختلفة، بعد أن أصبحت الدولة البيزنطية فى حكم دولة تابعة لخاقان تركستان «آتيلا العظيم» وامتدت حدود الإمبراطورية إلى نهر الرين فى الغرب، ومن البحر الأسود ونهر طونا جنوبًا إلى بلاد اسكندیناوه شمالاً هذا فى الغرب.

---

(1) هى تلك الأراضى التى تقع بين نهر طونا وجبال بلقان وتراقيا.

(٢) مدينة قديمة كانت فى غرب وارنا.

دولة الهياطلة

وأما فى الشرق، وفى داخل تركستان فقد كانت تحكم دولة تركية أخرى تسمى: «دولة الهون البيض» وفى المصادر العربية «الهياطلة» - وقد لعبت هذه الدولة أيضًا دورًا هامًّا فى تاريخ آسيا ولها أهمية خاصة فى تاريخ الهند والفرس أيضًا - إذ استطاعت هذه الدولة توسيع رقعتها فى مدة وجيزة حيث أعلنت الحرب على الدولة الساسانية فى إيران، وتغلبت على كسرى فيروز، وألحقت به هزيمة دامغة فى موقعة حربية؛ شرقى بلخ سنة ٤٨٤م.

وبعد تحقيق هذا الفوز اتجهت صوب الهند فاستولت على كشمير، ونهر الهندوس حتى «مالوا» فى الجنوب، وبذلك أصبحت هذه الدولة التركية التى تسيطر فى تركستان على حوض نهر «تاريم» و«ما وراء النهر» والصغد دولة عظيمة تسيطر فى خارج بلادها على أفغانستان كلها، وحوض نهر الهندوس وكشمير، وقضت على دولة كوبتا فى الهند، وعاشت فى عظمتها... إلى أن ظهرت فى تركستان دولة جديدة من أعظم الدول، وهى دولة الترك العظمى «تو - كيو» (Tukyu) حيث انقسمت مواطنها فى غير الهند بين الدولة الساسانية، وهذه الدولة التركية سنة ٥٦٦م.

دولة توكيو

تأسست هذه الدولة أول الأمر فى منطقة « آلتاى » بعد انقراض الدولة الهونية العظمى، وعاشت هناك إلى القرن السادس الميلادى حتى تقدمت فى الحضارة والرقى، واستطاع «إيلخان بومين» الذى يعد مؤسسًا حقيقيًّا لهذه الدولة أن يوحد جميع القبائل التركية فى تركستان تحت علمه وعين أخاه (استمى – Istimi) الذى يعرفه أهل الصين باسم: «شى – تى – مى» وذكره الطبرى (سنجبو خاقان)، حاكمًا على المقاطعات الغربية بعنوان «يابغو» وأعاد مجد الدولة الهونية العظمى حيث امتدت حدود الإمبراطورية من شبه جزيرة كوريا إلى بحر الخزر....

وبذلك أصبحت تركستان مرة أخرى من أكبر دول العالم.

ثم أعلن الخاقان «موخان بن إيلخان بومين» حربًا على إمبراطوريتى «وى» و«جو» فى الصين، وأجبرهما على أن يدفعا إتاوة سنوية إلى تركستان... ثم تحالف مع نوشيروان واشتركا معًا فى القضاء على دولة الهياطلة، واقتسما أراضيها فيما بينهما – على أن يكون نهر جيحون حدًّا فاصلاً بينهما (أى بين تركستان وإيران)....

ولما ظهر الجفاء بينهما استرد من إيران ما كان بيدها من أراضى الهياطلة، وضمها إلى تركستان بحجة أنها فى الأصل ممتلكات تركية – ويجب أن يعطى ما للترك للترك – وبذلك أصبحت باقتريا، وأفغانستان، وجميع البلاد التى تقع بين نهرى

جيحون والهندوس تابعة للتركستان من جديد وامتدت حدودها فى بعض الأحيان إلى شبه جزيرة القريم فى الغرب.

ونعلم من المراجع البيزنطية أن الترك فتحوا عام ٥٧٦م مضيق القريم، ووصلوا عام ٥٨١م إلى أسوار خرسون، وثمة مصادر بيزنطية من عام ٥٦٨م إلى عام ٥٩٨م. وكان أول رسل البيزنطيين وهو «زمرخوس» الوحيد من بينهم الذى عبر نهر آتيل (قلجا) وزار مقر خاقان الترك الغربية الذى كان قريبًا، شمالى مدينة كوجا (عند مدينة بوكور) ودارت بينه وبين الخاقان مفاوضات ترمى إلى القيام بحملات مشتركة على الساسانيين.

غير أنهما لم يعقدا حلفًا ثابتًا، وما أن مضت سنون قلائل حتى اشتبك الترك فى حرب مع الروم والفرس؛ وغزا الترك «اللان» فأضحت مملكة الساسانيين على تخوم الأراضى التركية لا فى تركستان فحسب، بل فى غربى بحر قزوين أيضًا. وأقيمت أسوار «دربند» لدفع الترك عن البلاد، وشيد الساسانيون الحصون فى البلاد التى إلى الشرق من بحر الخزر لتدرأ عنهم عادية جيرانهم الترك، فأقيم سور من الآجر لحماية جرجان ولكن هذا السور لم يقف دون غزوة الترك الظافرة، (و يقال إن كسرى أنوشروان هو الذى شيد هذا السور).

ولدولة الترك هذه أهمية خاصة فى تاريخ حضارات آسيا العامة حيث خلفت من آثارها الكتابة التركية القديمة المشهورة بالنقوش «الأرخونية» التى تعد من أخلد المآثر فى سجل الحضارات التركية، كما أنها لعبت دورًا مهمًا فى تاريخ العالم إذ كانت ترتبط بعلاقات سياسية واقتصادية مع الصينيين والساسانيين والبيزنطيين، ووصلت قوة الدولة فى النصف من القرن السادس الميلادى إلى درجة لم تهدد

الصينيين وحدهم بل كانت الدولة الساسانية والبيزنطية، والصينية، تحسب حسابها، وتخطب صداقتها. وفى ظل نظامها الدقيق أمكن تحقيق المبادلة الاقتصادية، والأدبية بين الصين والهند والفرس والروم، وأصبحت تركستان حلقة الاتصال بين الشرق الأقصى، وبقية المسكون من الكرة الأرضية.

الحركة الفكرية:

كان رجالها يقومون بمهمة نقل الآثار الفلسفية والأدبية والمدنية والأديان والتأثر بها، ثم نقلها من الغرب إلى الشرق، أو من الشرق إلى الغرب.

وفى ظل تلك الدولة العظيمة كانت تركستان لأمن طريقها وحسن نظامها ممرًا للأديان والأفكار؛ فاجتازت البوذية، والمانوية، والمزدكية، والزرادشتية، وكذلك النصرانية التى قدمت الهند وإيران والشرق الأدنى إلى الشرق الأقصى عابرة هذه المملكة التركية الشاسعة.

وكانت الدولة تنقسم إلى إدارتين مختلفتين: الشرقية، والغربية. وكانت الغرب تابعة لإدارة الشرق، ويحكم الغرب أمير من الأسرة المالكة بعنوان «يابغو»، ثم انفصلت إدارة الغرب عن الشرق سنة ٥٨٢م فى عهد الخاقان «شابوليو» بسبب منازعات الأمراء، والدسائس الخارجية. وقد ذاق كلا القسمين ويال هذا الانقسام فيما بعد، وزادت الدسائس الصينية، فكانت أكبر عامل على إسقاط الدولة الشرقية بعد انقضاء نصف قرن على هذا الانقسام سنة ٦٣٠م.

وأما الدولة الغربية، فلم يكتب لها أن يطول بها الزمن أيضًا فقد انقرضت سنة ٦٥٩م على أثر منازعات داخلية وهجوم خارجى،

ولكن التركستانيون أدركوا فيما بعد عاقبة التفرقة والشقاق فظهر منهم زعيم مخلص وقائد محنك، يسمى: «قوتلوق خان» الذى طرد الصينيين إلى بلادهم، وأعلن نفسه خاقانًا على بلاد تركستان سنة ٦٨١م، وأحيا من جديد دولة الترك الشرقية، وأحرز انتصارات باهرة فى كل مواقعه، وأعاد المجد القديم، وخلد اسمه مشرقًا فى صحائف التاريخ.

وبعد وفاته سنة ٦٩١م جلس على عرشه أخوه «موجوخان» وكان خير خلف لخير سلف – حيث انتصر فى جميع حروبه على الصينيين، كما انتصر على أتراك «قارلق» و«توركش» الذين حلوا محل الدولة الغربية – فى وقائع مختلفة؛ وبعد وفاته جلس على العرش «بيلكه خاقان» بن «قوتلوق خان»؛ ثم ابنه.....

وأخيرًا هاجمها «الأويغور» من الأتراك، بمساعدة القبائل التركية الأخرى، مثل باسمل، وقارلق – وقضوا على دولة الترك القوتلوقية سنة ٧٤٥م.

دولة تركش

وأما الدولة الغربية، فكانت قبيلة «تركش» وهى إحدى القبائل التركية التى تتألف منها الدولة الغربية – حلت محلها، وقامت بإحياء مجد دولة الترك الغربية، واستعادة ملكها.

كانت آسيا تغلى بها مراجل الحوادث، وتغمرها انقلابات عظيمة، تهدد قوات تركش من الشرق والغرب والجنوب (أعنى الفتوحات العربية الإسلامية) – بينما كانت الصين والتبت تتنافسان أيضًا فى إخضاع ممالك الترك الغربية فى الجنوب.

وفى سنة ٦٧٠م أصبحت التبت أمام أبواب كاشغر منافسًا قويًا للصينيين وفى تلك الأثناء، توفى خاقان تركش «اوجلة» سنة ٧٠٦م وتربع على عرشه ابنه «سوقو» ثم حدث نزاع شديد على العرش بينه وبين أخيه، فوثب عليهما خاقان الترك الشرقية، وقضى على حكم تلك الأسرة سنة ٧١١م...

وعلى أثر ذلك اندلعت نار الحروب بينهم حتى ظهر منهم زعيم عظيم يسمى «سنولو» فأخمد الثورات، ووحد القبائل، وأعلن استقلاله عن دولة الترك الشرقية، فأقام نفسه خاقانًا على تركش سنة ٧١٦م. وتحالف مع المسلمين العرب، والتبتيين ضد الصين. وأظهر بسالة نادرة فى كل مواقعه، ولم يرفض مطالب إخوانه الأتراك فيما وراء النهر، وطخارستان لمساعدتهم ضد العرب المسلمين.

وذهب بنفسه مرارًا لمحاربتهم، فحاربهم فيما وراء النهر، وطخارستان، ودفعهم مرارًا حتى وصل فى إحدى انتصاراته إلى خراسان – وفى النهاية دب روح النزاع من جديد بين قبائل «تركش» فانشطرت الدولة إلى حزبين، وقتل الخاقان فى المعركة، وعاش الحزبان مستقلين.

كان هذا النزاع بين الأتراك فرصة سانحة للصينيين، وللعرب أيضًا فأخضع الصينيون بعض القبائل سنة ٧٣٩م كما استرد العرب البلاد التى فقدوها فيما وراء النهر، وكانت دولة الترك الشرقية حينئذ قد انقرضت بهجوم مشترك من قبائل الأتراك «الأويغوريين» و«قارلق» و«باسمل».

الدولة الأويغورية

تأسست دولة الأويغورية على ساحل نهر أورخون، واتخذت «قارابالغاسون» عاصمة الدولة – كما تأسست دولة قارلق فى غربها، وأعلنت نفسها حاكمة على المقاطعات الغربية، ثم انتهزت فرصة النزاع بين الحزبين، واستولت على المقاطعات الغربية، فتم لها الاستيلاء على «توقماق» و«تالاس» عاصمتى دولة الترك الغربية سنة ٧٦٦م.

أما الدولة الأويغورية التى حلت محل دولة الترك الشرقية، فقد أخذت على عاتقها رفع بناء الحضارة التركية، وابتكار فنونها، فنمت قوتها بسرعة.

كانت بلادها تحتوى على: تركستان الشرقية كلها، ومنغوليا، وعلى بعض الولايات الصينية، وبدأت تهدد الصين كأسلافها حتى غزا خاقان الأويغوريين «بوكوك خان» بلاد الصين، فوصلت فتوحاته إلى «لويانج» عاصمة أسرة «تانغ» الصينية عام ٧٦٢م.

ولبثت هذه الدولة رافلة فى أثواب عزتها، متمكنة فى أوج قوتها مدى قرن من الزمان (٧٤٠ – ٨٤٠). م، ثم انهزمت أمام قبيلة تركية أخرى وهى قرغيز، وعلى أثر ذلك اضطرت إلى ترك منغوليا وانحصرت دولتها فى تركستان الشرقية، ومقاطعة «قانصو» فى الصين. واتخذت «قاراخوجا» فى طورفان عاصمة جديدة للدولة، حيث خلفت هناك تلك الحضارة الباهرة التى تدهش

الناظرين، وتحير الألباب.

كانت تركستان الشرقية منذ أقدم أجيال التاريخ موطنًا للأتراك، ومهدًا لحضارتهم. وقد سمى العرب سكانها الأتراك، قبل مهاجرة الأويغوريين إليها باسم تغزغز (توقوز أوغوز)، وسموا الأويغوريين كذلك بعد هجرتهم إليها بهذا الاسم لعدم علمهم بهذه المهاجرة الجديدة. (و الذين هاجروا من تركستان إلى الصين، من قبائل تغزغز بعد مجيء الأويغوريين أقاموا فى هونان، ثلاثة بيوت حاكمة، الأول بيت «تانج» المتأخر فى الزمن، وقد حكم من عام ٩٢٣م إلى ٩٣٦م، والثانى بيت «تسين» المتأخر أيضًا وقد حكم من عام ٩٣٦م إلى ٩٤٧ والثالث بيت «هان» المتأخر كذلك وقد حكم من عام ٩٤٧م إلى عام ٩٥١م).

لقد تقدمت حضارة تركستان الشرقية بعد تأسيس الدولة الأويغورية هناك تقدمًا باهرًا، أثبتت هذه الحقيقة الوثائق التاريخية، والآثار المدنية، التى عثرت عليها البعثات الأوروبية فى الحفريات التى اكتشفت هناك، منذ أوائل القرن العشرين، وهذه الحفريات التى أجريت فى عاصمة الأويغوريين «خوجو» أو «ايديقوت» كانت لها نتائج باهرة تدل على أخذهم بأعظم أسباب المدنية والعمران، وتقدمهم فى مدارج العظمة والرقى.

يقول أحد المستشرقين الألمان بعد ما شاهد هذه الآثار الفنية، التى نقل بعضها إلى المتاحف الأوروبية، وبعضها الآخر فى مواطنها الأصلية: «يحق للأتراك أن يفاخروا بأجدادهم الذين خلفوا هذه المدنية الزاهرة، فى وقت لم يكن بإنجلترا وفرنسا وألمانيا شيء منها».

دولة كارلق

حلت قبائل قارلق محل تركش، ودولة الترك الغربية، فكانت فى الأول تسكن فى الشمال الغربى من «أورمجى» و«كوجن» وغربى «آلتاى»، فلما بدأ الانقسام بين أجزاء إمبراطورية الترك العظمى، استولت عليها الصين، فأصبحت إحدى الولايات الصينية، وهاجر أهلها إلى الجنوب، واتفقوا مع الأويغوريين وباسمل وقضوا على دولة الترك الشرقية سنة ٧٤٥م. وكان الساكنون منهم فى جبال «اوتوكن» تابعين للأويغوريين، والذين فى آلتاى وبشبالق تابعين للصين، واشتركوا معها فى بعض الحروب، وفى المعركة الدامية التى وقعت بين قائد المسلمين «زياد بن صالح» وقائد الصين «كاو - شين - جه» على نهر تاراس، انضم هؤلاء الأتراك «قارلوق» إلى المسلمين حينما رأوا إخوانهم الأتراك فى صفوف المسلمين العرب. وكان انضمامهم إلى المسلمين سببًا فعالاً فى كسب الحرب، وبلغ المسلمون بمساعدتهم الانتصار الباهر الذى غير مجرى التاريخ، وأبعد الصين عن تركستان جملة. ثم بدأ أتراك «قارلوق» يلعبون دورًا هامًا فى ميدان السياسة، فزادت قوتهم - حتى حاربوا الأويغوريين للاستيلاء على تلك المناطق (٧٥٦ - ٧٥٧)، واستفادوا أيضًا من نزاع قبائل تركش.

وأسسوا دولتهم فى بلاد الترك الغربية، وأصبحت خلفًا لتركش سنة ٧٦٦م، ثم حاولوا صد هجمات المسلمين على ما وراء النهر بما

أمكنهم من جهود ، حتى استولوا مرة على فرغانة فى عهد الخليفة «هارون بن الرشيد» غير أنهم اضطروا أخيرًا إلى ترك فرغانة. وفى سنة ٨٠٦م تحالفوا مع الأويغوريين والتبتيين ضد الدولة العباسية ، ولكن المأمون الذى كان واليًا فى خراسان استصوب سياسة مجاملة الأتراك وإرضائهم. فلهذا عقد معهم معاهدة صداقة وتحالف، ومن ثم بدأ الإسلام ينتشر بينهم ، ويغزو قلوبهم وكان ذلك مقدمة صالحة ترشحهم للقيام بدورهم فى إنشاء الدولة الخاقانية الإسلامية فى تركستان الشرقية فيما بعد.

obeikandl.com

الإسلام وتركستان

شاء الله أن يكون من نصيب تركستان إشراق نور الإسلام فى أرجائها، وسطوع ضوء الإيمان تحت سمائها، ووصول عبير القرآن إلى أبنائها، لتكون ركنًا فى صرح التاريخ الإسلامى متصلاً ببنائها، وذلك فضل من الله عليها، ونعمة منه واصلة إليها، استمرت على تعاقب أجيالها، وتوالى الأيام فى بكورها وآصالها، حتى قامت هذه الأمة بواجبها نحو الرسالة السماوية العلياء، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فبعد موقعة «نهاوند» التى عرفت فى تاريخ الإسلام بفتح الفتوح، استولى العرب المسلمون على بلاد إيران كلها سنة ٦٤٢م وهرب يزدجرد آخر الأكاسرة الساسانية إلى تركستان، والتجأ إلى الأتراك، وأقام فى مرو فتعقبه المسلمون حتى وصلوا إلى حدود تركستان، والتقوا بالأتراك لأول مرة، وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن الدولة الإسلامية، وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم، وبنوا الكوفة على الشاطئ الغربى لنهر الفرات، وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدائن، واعتنق الفرس الإسلام، واختلطوا بالعرب وصاهروهم، وأصبحوا عنصرًا إسلاميًّا هامًا.

وأصبحت الإمبراطورية التركية التى كانت حينئذ من الدول الأربعة الكبرى فى العالم على حافة الانقراض – وفعلاً انقرضت الإمبراطورية فى تلك السنة نفسها سنة ٦٤٥م وتأسست عدة إمارات

ودويلات تنازعت فيما بينها؛ ودمرت قواتها القومية بالنزاع والشقاق.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الصين تهدد الأتراك، وتطمع فى الاستيلاء على تركستان، ولكن المسلمين العرب بعدما فتحوا إيران، نشروا الإسلام فيها، وعظم شأنهم، ثم بدأت عوامل الغزو بين المسلمين وأتراك تركستان.

وفى عهد الخليفة «عثمان بن عفان» ﷺ، استولى المسلمون على بلاد خراسان التى كانت أكثر سكانها أتراكًا، واستقروا فيها، وبدأوا يتقدمون صوب الشرق، واستولوا على مدينتى «بلخ وهرات»، ووصلوا إلى نهر جيحون. وفى عهد معاوية صارت خراسان قاعدة حربية للتقدم إلى داخل تركستان، وأسكن فيها قدر خمسين ألفًا من مهاجرى العرب من الكوفة والبصرة، واستعدوا للحرب إلى أن تتاح الفرصة، وكان من حسن حظ المسلمين أن بدأت الحرب بين ملوك تركستان وأمرائها، واستفاد المسلمون من ذلك، فاتجهوا إلى طخارستان، وما وراء النهر، واستمرت الحرب من ذلك الحين إلى عهد الخليفة عبدالملك، فلما تربع على عرش الخلافة اهتم بفتح تركستان، لكنه لم ينجح فى أول الأمر وثبت الأتراك على الدفاع عن بلادهم، والزود عن كيانهم، حتى أخرجوا المسلمين الذين عبروا نهر جيحون مرة إلى غربها.

وحينما عين الخليفة عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفى فى ولاية خراسان، بدأت الحرب بين الترك والمسلمين على أشدها، وأرسل الحجاج قواده المشهورين لفتح تركستان، ولما رأى عدم نجاحهم ولى الحجاج البطل الإسلامى «قتيبة بن مسلم الباهلى» على خراسان سنة ٨٦هـ. فلما وصل قتيبة إليها استعرض جيوشها ونظم شئونها، ثم شمر للجهاد على رأس جيش جرار، بعد أن جعل على

المهمات الحربية بمرو «إياس بن عبد الله بن عمرو» من أمهر القواد، وجعل على الخراج «عثمان بن السعدى» وسار هو يعبر النهر إلى داخل تركستان، فتسامع ملوك تلك الأقطار بهذه الحركة، فمنهم من أدرك أن لا قبل له بقتال المسلمين، فاضمر التسليم، ومنهم من اعتزم المقاومة والاستبسال.

وبذلك بدأت الحرب على أشدها ونجح المسلمون فى هذه الحروب الطاحنة الدامية التى استمرت نحو اثنتى عشرة سنة متوالية، ورسخت قواعد الإسلام بعد ذلك؛ حتى امتد النفوذ الإسلامى إلى «كاشغر» فى تركستان الشرقية، ثم بدأ المسلمون ينشرون الإسلام بين ربوعها بجد ونشاط.

رأى التركستانيون أنهم أمام دين جديد، قوامه التعاون والتعاطف والتراحم وإقامة شريعة الله على السواء بين الجميع، لا يرتفع كبير على صغير، ولا يستطيل غنى على فقير ولا فضل لعربى على عجمى. وتبين لهم أن هؤلاء الغزاة لم يتقدموا للاغتنام والغلب، وإحراز كنوز الفضة والذهب، والتعالى والاستكبار فى الأرض، وإنما جاءوا لنشر رسالة التوحيد، ورد مخلوقات الله إلى الله، وإقامة العدل بالقسطاس المستقيم بين الغالب والمغلوب.

إن التركى إذا آمن بعقيدة، أو تبين له صوابها، لم يتردد لحظة واحدة فى الإيمان بها والدفاع عنها. لذلك نرى بعد تلك المقاومة العنيفة إقبالاً على الإسلام وتعلقًا بأهداب القرآن. ومن المعقول فى الأمم أن لا تقبل زيادة الديانات الجديدة بمجرد رؤية بعض أهلها! ولا بد فى أول الأمر من أن تثور الغيرة والحمية، وتنشط النفوس إلى الدفاع والمقاومة، فإذا تبين الرشد من الغى أمكن لنا أن نضع فى الميزان مقدار عقلية الأمة، وتقديرها للحقائق. وأتراك تركستان ما

كادوا يتبينون حقيقة الإسلام حتى أقبلوا إليه طائعين، ومدوا أيديهم إليه مختارين، ودخلوا فى دين الله أفواجًا، وأقبلوا على الإسلام زرافاتٍ ووحدانًا بعد أن درسوا الكتب الدينية، وتعمقوا فى البحث عن الإسلام، ودلائله الواضحة، وحججه القاطعة وجواهر حكمه، وبدائع مواعظه، وجوامع كلمه، وأيقنوا أن فى هذا الدين تنظيم أمورهم، وإصلاح نفوسهم، ورقى شعوبهم، وأنه دين العقل ودين الفطرة، ودين المروءة، ودين المساواة ودين السعادة وتاج الأديان.

لقد نال هؤلاء الأتراك الحظوة الخطيرة فى عهد العباسيين، واشتغلوا بترقية شئون الدولة، ومد نفوذها، فأصبح المرجع إليهم فى كل الأمور، حتى صار أغلبية الوزراء والوكلاء، وقواد الجيوش من أبناء تركستان.

وكان الخلفاء يحبون الأتراك حبًّا جمًّا، ويقدرونهم جدًا ومدحهم كثير من الشعراء والعلماء، وأثنوا عليهم وكتب بعضهم رسائل مستقلة فى مناقب الأتراك وفضائلهم.

قال أبو إسحاق:

وفتية من كماة الترك ما تركت

للرعد كباتهم صوتًا ولا صيتًا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة

حسنًا، وإن قوتلوا صاروا عفاريتا

وقال ابن الرومى:

إذا ثبتوا فسدّ من حديد

تخال عيوننا فيه بحار

وإن بـــرزوا فـــنيران تلظـــى

على الأعداء يضرمها استعار

لما أصبح للأتراك الحكم المطلق فى بغداد كانوا يتولون أيضًا كثيرًا من البلاد والولايات، واستقل بعضهم حين بدأ الانقسام والضعف فى الدولة العباسية كالدولة السامانية فى تركستان، والدولة الطولونية والإخشيدية فى مصر والشام – فلما رأى غير المسلمين من الأتراك نجاح مواطنيهم من أبناء جلدتهم، نهضوا من رقدتهم، واستيقظوا من سباتهم وبدأوا يدخلون فى دين الله أفواجًا بمحض اختيارهم.

obeikandl.com

جهود الأتراك فى نشر الإسلام

استطاعت الدولة السامانية التى تأسست فى المقاطعات الغربية من تركستان الكبرى، والدولة الخاقانية التى ظهرت فى شرقها – أن تعمل كل منهما على انتشار الإسلام بين من لم يسلموا من الأتراك، فدخلوا فى دين الله زرافاتٍ ووحدانًا وانتشر الإسلام فى القرن العاشر الميلادى، فيما وراء سيحونْ وكاشغر، وبدأ انتشاره بين قبائل أوغوز، قارلق من قبائل الأتراك فأسلم فى سنة ١٠٤٨م ٣٥٠هـ مائتا ألف أسرة فى يوم واحد بين طاشكند وفاراب وإذا فرضنا أن كل أسرة مؤلفة من خمسة أنفس، فعدد الذين أسلموا فى هذه المرة نحو مليون نفس. وكذلك أسلم سنة ٤٣٥هـ عشرة آلاف أسرة من أهل "بالاساغون" و"كاشغر" دفعة واحدة باحتفال مهيب، ضحوا فيه عشرين ألف رأس غنم.

وتأسيس الدولة الخاقانية فى تركستان الشرقية، ثم فى غربها أيضًا والدولة الغزنوية فى جنوب تركستان، وأفغانستان، والهند الشمالية، أنتج دخولهم فى الإسلام بعضهم وراء بعض.

بعد أن بدأ الانقسام فى الدولة العباسية، أسس الأتراك فى مصر والشام: الدولة الطولونية، ثم الإخشيدية – وفى تركستان نفسها الدولة السامانية، وفى شرقها الدولة الخاقانية وفى جنوبها وبلاد الأفغان والهند: الدولة الغزنوية. ثم اتحد تحت الراية السلجوقية الكبرى كل البلاد التى كانت تحكمها الدولة

العباسية – عدا مصر والهند – وفضلاً عن ذلك ضمت بلاد الأناضول إلى الدولة، وعلى أثر انقسامها تأسست عدة دويلات تركية في البلاد التي حكمها السلاجقة في إيران، والعراق وسوريا، والأناضول وغيرها....

وعاش في ظل الإسلام: الدولة الخوارزمشاهية، ثم الدولة التيمورية الكبرى، وبقية الإمارات التي تأسست في تركستان بعد انقسامها، وخدمت الإسلام حتى لم يبق فرد من الأتراك في تركستان يتدين بغير الإسلام.

ولما كان الأتراك قبل الإسلام أمة عظيمة القدر قديمة المدنية، ذات مجد وسلطان، كان من الطبيعي أن يخدموا الإسلام بعد أن آمنوا، وما كاد الأتراك في تركستان يعتنقون شريعة التوحيد، وتغلغل أصولها في المشاعر والألباب حتى نهضوا ينشرون الدعوة، وأقاموا من أنفسهم غزاة فاتحين، ودعاة مخلصين يعملون على إعلاء كلمة الإسلام ما وسعهم الجهاد، واتسعت لهم رقعة الأرض.

والتركستانيون إنما خلقوا للجهاد: فإذا جاء دين الجهاد، فقد وجدوا أعز أمنية على أنفسهم، وأقرب غاية إلى أرواحهم الطامحة وعزائمهم الجياشة، لقد تأثرت قلوبهم بالإسلام، فألفوا ودونوا وكانوا مسلمين، نية وقولاً وعملاً.

لم يكتفوا بالمراسيم والألفاظ، ولم يقفوا عند حدود المظاهر والألوان، بل أشربت قلوبهم معارف القرآن، وامتزجت أرواحهم بفقه السنة وأنوار السيرة المحمدية المطهرة، وجعلوا أداء الشعائر، وإقامة حدود الله نصب أعينهم، وقبلة آمالهم، ثم دفعتهم الغيرة إلى أن يقوموا بالدعوة والإرشاد، فساهموا بنصيب موفور في هذا الواجب، وفقاً لقوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ لم يكن ذلك فى بلادهم وحدها بل فى كل ما جاورهم من الممالك والأقطار، فأرسلوا دعاة الإسلام إلى بلاد التبت: فأسلم كثير من سكانها بغير تردد، ثم نشروا الشريعة الإسلامية فى بلاد إخوانهم المغول الذين يسكنون هضاب «مغولستان» و«منغوليا». وذهب التركستانيون أيضًا إلى المدن الصينية المجاورة للتركستان الشرقية، ونشروا الدعوة الإسلامية فيها، فأسلم عدد كبير من الصينيين، فلذلك نرى أن أكثر المواطن الصينية احتشادًا بالمسلمين، هى المواطن التى تتاخم بلاد تركستان.

ويكفى كذلك أن نذكر اللفظ الذى يدل على المسلم ويعبر عن معناه فى اللغة الصينية، فكلمة «خوى – خوى» هى التى تعنى المسلم، وهى محرفة باعتراف الصينيين عن كلمة «أويغور» التى هى أشهر قبيلة تركية، تكون أكبر عدد فى التركستان الشرقية.

لم تنحصر جهود المسلمين الأتراك فى هذا الميدان وحده ولكنهم رفعوا لواء الإسلام عاليًا عند إخوانهم من أتراك «البلغار»: وسواحل نهر فلجا «أثيل»، وساروا بدعوتهم القوية فى كل ما أمكنهم الوصول إليه من البلاد الشمالية، وما زالت تلك جهودهم تمضى بهم قدمًا فى سبيل الله حتى شرقى أوروبا.

ومن تتبع تاريخ نشر الإسلام فى «بولندا»، و«فنلندا»، و«استونيا» وسائر الممالك البلطيقية وغيرها تعرف مبلغ المجهودات الباهرة التى كان يبذلها أولئك المؤمنون الصادقون من أبناء تركستان، الذين جعلوا نشر الدين فى أول الواجبات، وفى مقدمة الأعمال الخالدة التى بذلوها.

وإن أنسى لا أنسى فتوحات السلطان «محمود الغزنوى» للهند، وكان هناك الشأن الأول، والمقام الأعلى للوثنية، والديانات

الهندوكية، فلما كتب الفوز لهذا السلطان التركى المسلم، صدع بأمر الله فى جهاد الكفر والكافرين، وحطم الأصنام فى معاقلها الحصينة، ونشر دين التوحيد فى ربوع الهند، وغرس الغرس المبارك الطيب الذى حق له من بعد أن ينمو ويزداد، على توالى الأجيال والعصور... ولم يكد الإسلام بكتابه وسنته يسكن بلاد تركستان وتنبثق أشعته الإلهية فى قلوب أبنائها حتى أقبلوا على الدرس والتحصيل، واندفعوا للبحث والاستقصاء، وأقاموا من أنفسهم قادة، وحملة للواء العلم والثقافة فيها. ولعل المطلعين على أبسط مراجع التاريخ، يعلمون قيمة الجهود التى بذلها الأتراك فى خدمة الإسلام، وكيف كانت لهم القدم الراسخة فى جيش الجهاد فى سبيل الله، ومحاربة الوثنية والصليبية، وحماية هذا الملك العظيم ضد أعدائه من الشرق والغرب.

تركستان مدرسة العلماء

ما أكثر ما يشغلنا التاريخ السياسى والحربى، وانقلاب الدول، وتغيير الممالك عن تاريخ العلم وتطوراته. فكثير من الناس يحفظون عن الترك أسماء أبطالهم وقوادهم، الذين غامروا فى الميادين، ودافعوا عن حوزة الدين، ويعرفون فضل السلاجقة، والأتابكيين، والسامانيين، والخاقانيين، والغزنويين، والطولونيين، والإخشيديين، والتيموريين، والتوغلوقيين، والبابريين، والمماليك، والعثمانيين....

وما كان لملوك هذه الأسر من الفضل فى دفع الحروب الوثنية، والصليبية، وحماية بلاد الشرق والإسلام. وهنا يقف المعجبون بأبطال التاريخ الحربيين، فلا يذكرون العلماء بشىء، وينسون أن أولئك الأبطال ما كان لهم أن ينهضوا بأعبائهم الفادحة، ويناضلوا عن حوزة الإسلام – لولا أن قلوبهم ارتوت من سلسبيل تلك المعارف والعلوم، التى نشرها المحدثون والمفسرون، والحكماء والمتكلمون وغيرهم.

وإنى لو حاولت أن أحصى عدد العلماء الذين نبغوا من تركستان، لاحتجت إلى مطولات ضافية، ولكنى أقصد إلى التذكير والإلماع الموجز، فليس من سبيل إلى إحصاء أولئك الأساطين من حكماء وعلماء، لم يكونوا لتركستان وحدها، بل كانوا للعالم كله وبخاصة الإسلام. وما برحت أسماؤهم أنشودة عذبة لكل من يتغنى بمفاخر الإسلام، وعظمته الأولى. فمنذ القرن العباسى إلى وقت غير بعيد منا كان تيار العلم متدفقاً من بخارى،

وسمرقند، وخوارزم، والشاش، وكاشغر، وبلخ. – حتى القرى المجهولة فى تركستان قد نبهت أسماؤها حين نبغ علمائها، وقد ظهر منهم أئمة رفعوا لواء الإسلام عاليًا وبنوا له مجدًا باذخًا، كالإمام الحافظ الحجة، أمير المؤمنين فى الحديث، فى القديم والحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، وكذا الإمام الترمذى، والنسائى، وصاحب «الكشاف» العلامة جار الله الزمخشرى، وصاحب «المفتاح» يوسف السكاكى، والشيخ عبدالقاهر الجرجانى، والعلامة سعد الدين التفتازانى، والعلامة السيد الشريف الجرجانى، وكذا الفقيه الشيخ شمس الأئمة السرخسى صاحب «المبسوط»، والشيخ سديد الدين الكاشغرى، وصاحب «الهداية» على ابن أبى بكر المرغينانى، والعلامة صدر الشريعة، وتاج الشريعة، وبرهان الشريعة، وصدر الأفاضل، ومفسر القرآن: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى، وإمام أهل السنة أبو منصور الماتريدى، والكاتب الأديب أبو بكر الخوارزمى، والأديب المعروف بالشطرنجى الصولى، ومحمود الكاشغرى، وكذلك كل من يدعى منهم بالشاشى، والسمرقندى، والنسفى، والكاشغرى، والخوتنى، والخوارزمى، والترمذى، والبلخى، والأوزجندى، والخجندى، والفارابى، والمرغينانى، والبخارى..... إلخ، فكلهم من تركستان.

كذلك المعلم الثانى الحكيم الكبير أبو نصر الفارابى، والشيخ الرئيس على بن سينا، وخالد بن عبد الملك، المتخصص الكبير فى مرصد المأمون، وأبو زيد البلخى (أول من كتب الجغرافيا على طريقة قدماء اليونان)، وبنو موسى بن شاكر: (محمد وأحمد والحسن) أشهر رياضيى العهد العباسى، وأوائل

المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة، والذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الأرضية، وصححوه، وهم الذين اخترعوا علم الجبر والمقابلة وأذاعوا الحساب الهندى بين المسلمين، وابتكروا كذلك زيجًا جامعًا على أصول الهند واليونان.

ثم أبو ريحان البيرونى الذى علم المسلمين فلسفة الهند، وعلومها، والجوهرى الذى أهدى إلى الأمة العربية أحسن قواميس اللغة العربية وأكملها.

وغيرهم من فطاحل الفضلاء الذين لا يدخلون تحت حصر واحد، إلا فى مجلدات عديدة، وأسفار ضخمة — كانوا من صميم أبناء تركستان.

علماء الإسلام كانوا بدورًا

وسماء البدور تركستان

إن أردت الدنيا ترى المجد فيها

قد أقيمت لصرحه أركان

أو أردت الدين الحنيف تجدها

وهى للبر والهدى عنوان

وطن المصلحين دينًا، ودنيا

تتغنى بفضلها الأزمان

هكذا نشطت هذه الأمة للعلم، وأخذت ترتشف رحيق هذا الدين تفسيرًا، وحديثًا، وسيرةً، وتاريخًا، وضربت فى الفقه الإسلامى بسهم قوى.

ولا غرو، فما كانت تركستان تجد لنفسها فى ذلك العهد

شخصية غير الشخصية الإسلامية، المؤلفة من الناطقين بالضاد أو بغير الضاد، فهى جزء من ذلك الكل، وعضو فى ذلك الجسم، وشجرة من هذا البستان الكبير، فساهمت بعلمائها، ومحدثيها، وفلاسفتها.

لم يكن الجهاد فى الدراسة والتحصيل، محصورًا على طبقة من الناس، بل كان ملوك تركستان قبل رعاياهم فى حلقات هذه الدروس يستمعون إلى العلماء ويستفيدون منهم، وقد جعلوا هؤلاء العلماء صدور مجالسهم، ووزراء دولتهم، وقضاة حكومتهم وولاة أقاليمهم، وكانوا يكافئونهم، بالجوائز السنية، والمراتب الرفيعة، ويعظمون قدرهم، ويرفعون شأنهم، وينتظمون فى حلقات دروسهم، ويبنون لهم المدارس، وينشئون لهم المراصد ويشيدون لهم دور الكتب.

دولهم فى الإسلام

كانت جهود الأتراك كلها أدلة ناطقة على أن مجدهم فى الإسلام قام على دعائم ثابتة من مجدهم الراسخ، وبرهانًا على أن سجاياهم الفطرية فى معترك الجهاد قد انبعث فى ظل الإسلام، وازدادت نورًا وإشراقًا، وإذا كان هذا الحديث المجمل صورة مصغرة من خدماتهم العلمية والدينية. فقد كان لهم فى أفق السياسة وفى أنظمة الحكم، وإقامة الدول مدنيات اقتبست من الإسلام نورًا جديدًا؛ بل أضافت إلى قاموس الحضارات العالمية كلها مجدًا لا يمر عليه التاريخ إلا بالثناء والإعجاب.

والدولة الأولى من الترك بعد الإسلام فى تركستان، هى الدولة السامانية.

الدولة السامانية

كان «سامان ياوغى» الذى تنسب إليه هذه الدولة، من قبائل أوغوز التركية، ومن رهبان معبد «نوبهار» البوذى فى بلخ، وقد استعان طاهر بن الحسين بأسد بن سامان فى بعض أعماله، وكان له أربعة أولاد، هم: نوح، وأحمد، يحيى، وإلياس، نشأوا نشأة حسنة، وإرتفع شأنهم عند المأمون، حينما كان عاملاً لأبيه على خراسان، فلما أفضت إليه الخلافة ولى نوحًا بن أسد سمرقند، وأخاه أحمد (فرغانة)، ويحيى (الشاش) (طاشكند)، وأشرسنه (أوراته). أما إلياس فولاه «هرات».

ولما توفى نوح بن أسد، أضيف عمله إلى إخوته، ثم توفى أحمد فقام بالأمر بعده ابنه نصر على سمرقند، ثم من بعده إسماعيل بن أحمد، وهو مؤسس هذه الدولة، وهى تعتبر أول دولة إسلامية تأسست فى تركستان منذ ظهور الإسلام، وقد توالى على الملك فيها تسعة ملوك – أولهم:

إسماعيل بن أحمد (٢٨٧ – ٢٩٥م)، وآخرهم عبد الملك الثانى... وكان ملوكها مخلصين فى طاعة الخلفاء العباسيين، يحاربون الخارجين عليهم. فقضوا على الصفاريين، وحاربوا العلويين فى طبرستان، وظلت ممتلكاتهم تحت سيادة السامانيين.

ولا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد امتد سلطان الدولة السامانية فى أفغانستان وقيل فى «مجمل فصيحى» أن إسماعيل

السامانى حكم بعض نواحى الهند ، ولعله كانت له بعض السيادة على ملوك «أوهند» من الهندوس.

كان لهذه الدولة أثر حسن فى تاريخ الآداب الفارسية، وفى عهدها ورعايتها انبعث الأدب الفارسى الإسلامى، واشتهرت تلك الدولة بالعدل والإصلاح، وقد بلغت أعلى منزلة، وأرفع مكانة وأسمى درجة فى الحضارة والرقى والفنى والثروة، وازدهرت العلوم والمعارف، وتأسست فى كافة أنحاء تركستان جمعيات علمية لتعميم العلم ونشره بين جميع الأهلين على اختلاف طبقاتهم، حتى أصبحت تركستان إذ ذاك كعبة للعلم والعرفان، تؤمها الأمم من كل حدب وصوب، فنشأ عدد غير قليل من العلماء والحكماء والمحدثين.

وكذلك ارتقت التجارة والزراعة، وتقدمت الفنون والصناعة، حتى اشتهرت فى جميع الآفاق منتجاتها الصناعية، ومنسوجاتها الحريرية، ومصنوعاتها الحديدية... وصارت التجارة سببًا قويًّا فى انتشار الإسلام بين قبائل الأتراك انتشارًا مدهشًا فى ذلك العصر.

ولما كانت الدولة السامانية تسير إلى العظمة والمجد، تأسست فى شرقها دولة إسلامية تركية أخرى، وهى الدولة الخاقانية. وفى جنوبها الدولة الغزنوية. واقتسمتا فيما بينهما السلطان والدولة.

الدولة الخاقانية

لا نجد من مصادر التاريخ من يتكلم منها على تأسيس الدولة الخاقانية إلا القليل النادر، ولكننا نعلم أن أول من أسسها وأسلم، هو السلطان «ستوق بغراخان». وقد دانت لهذه الدولة كل البلاد التى تقع شمال جبال تيانشان، وجنوبها – أى التركستان الشرقية كلها.

وتعرف هذه الدولة فى بعض كتب التاريخ باسم «دولة آل أفراسياب، ودولة خانات تركستان» أى الدولة الخاقانية. كما أطلقنا هنا، أو الخانية القاراخانية – وذكرها المؤرخ التركى الدكتور «رضا نور» بعنوان «الدولة الأويغورية»، وأطلق محمود الكاشغرى عليها «الدولة الخاقانية»، وسماها الأوروبيون بالدولة الايليكخانية، استنادًا إلى المسكوكات والمخلفات.

إن لهذه الدولة أهمية عظيمة فى انتشار الإسلام بين الأتراك، وقد عمل السلطان ستوق بغراخان على نشر الإسلام فى جميع أنحاء البلاد، وبسط نفوذه على جميع القبائل التركية فى وادى «سيحون»، وبدأ بتهديد الدولة السامانية. وفعلاً استولى السلطان «إيلكخان ناصر» على ما وراء النهر، ثم حارب السلطان محمود الغزنوى لسلخ خراسان منه، ولكن الحرب تمت بالصلح.

ولقد كانت الدولة ذات صبغة تركية محضة فى كل أمورها وشئونها، وقد صنفت كتب كثيرة باللغة التركية فى ذلك العصر الزاهر، فمنها كتاب «قوتاتقوبليك» الذى كتبه يوسف خاص

حاجب (١٠٦٩ – ١٠٧٠) وأهداه إلى السلطان أبى على حسن تابغاج بغرا قاراخان، وتحتوى على أكثر من ٦٥٠٠ بيت، ولهذا الكتاب قيمة فلسفية واجتماعية، فضلاً عن كونها أدبية – بل هى أدب الفلسفة، ونظرية الدولة – ولقد ترجم القرآن أول مرة إلى اللغة التركية فى ذلك العصر.

لم تستمر الدولة الخاقانية طويلاً – على عظمتها الكبرى – بسبب النزاع الداخلى بين أمراء المملكة الذين يؤلفون الهيئة الحاكمة فى الدولة – إلا أن السلطان يوسف قادرخان (١٠١٤ – ١٠٢٠) استطاع أن يوحد كلمتهم، ولكن سرعان ما بدأ الانقسام بعد وفاته....

فاستطاع الغزنويون أن يستغلوا هذا النزاع، الذى استغله أيضًا سلاطين السلاجقة، وقد تمكن الخاقان ملكشاه وابنه سنجر من بسط نفوذهما على سمرقند، وكاشغر. وانتقل هذا النفوذ بعد موقعة ١١٤١م إلى قراختاى التركى الوثنى.

الدولة الغزنوية

أما الدولة الغزنوية فقد أسسها «ألب تكين»، وذلك أنه كان حاجبًا للملك السامانى عبد الملك، واستطاع بمنصبه هذا أن يظهر بمظهر الحاكم الحقيقى للبلاد، واستوزر أبو على البلعمى بفضل نفوذه، وكان لذلك لا يصدر أمرًا من غير علمه ومشورته.

ولما أراد الملك إبعاد «ألب تكين» عن العاصمة لم يجد وسيلة تحقق غرضه إلا تقليده أكبر منصب حربى فى البلاد وهو ولاية خراسان (٩٦١) (٣٤٩هـ).

وقام بصرفه منصور بن نوح – وكان ألب تكين لم يرض عن ولايته لعرش تركستان، فرجع إلى بلخ (٩٦٢م، ٣٥١هـ) وهزم جيشًا أنفذه إليه منصور، ثم سار إلى غزنة، وقضى على أسرتها الحاكمة، وشيد لنفسه دولة تركية جديدة. فلما مات خلفه ابنه أبو إسحاق إبراهيم الذى لم يستطع الاحتفاظ بسلطانه إلا بمعونة السامانيين، بالرغم من الفتنة التى قام بها صاحب غزنة السابق.. وهكذا أصبحت الدولة الغزنوية إمارة تابعة للسامانيين. ولما مات أبو اسحق اتفق الأتراك على تولية بلكه تكين، وبعد وفاته قبض سبكتكين على زمام السلطة، وأصبح هو المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية كما أصبح حاكمًا قويًا فى أفغانستان كلها، وهاجم «جيبال» ملك «اوهند» الهندى، ثم ولاه على خراسان مولاه نوح السامانى.

كانت الدولة السامانية آخذة فى الانحلال إذ ذاك، بينما كان

سلاطين الغزنويين يزدادون قوة – ولما توفى سبكتكين (٩١٧) بعد عشرين سنة من ولايته تاركًا لأبنائه ملكًا عظيمًا، تنازع الملك من بعده إسماعيل، ومحمود، فأديل لمحمود، وهو أعظم ملوك هذه الدولة، ومن أكبر أباطرة الأتراك ومفاخر الإسلام، ومن أسمى عباقرة تركستان.

قضى هذا العاهل على الدولة السامانية، واستولى على خراسان، وعراق العجم وخوارزم، وانتزع ما وراء النهر من الخاقانيين. وأغار على الهند سبع عشر مرة وانتصر فى جميعها انتصارًا باهرًا وفاز فوزًا مبينًا.

وبذلك انضمت الهند الشمالية إلى دولة الترك، ورفرف علم تركستان على سماء الهند لأول مرة فى الإسلام، ولقد حاز السلطان محمود شهرة كبيرة فى بلاد الشرق بين الأمم الإسلامية، ولما اتسعت فتوحاته وثقلت أعباؤه أخذت تهرع إليه وفود المسلمين المتطوعين من كافة البلاد الإسلامية رغبة فى القتال معه، وحبًا فى الشهادة، لما كان لحروبه من الصبغة الدينية، إذ لم تكن غايته سوى تحطيم الأصنام ومحاربة الوثنية وإعلاء كلمة الله... ولقد خلد السلطان محمود لنفسه فى بطون التاريخ اسمًا مجيدًا، حيث أحرز أول انتصار لجيش تركستان الإسلامى فى الهند، وهو أول تركى فتح الهند فى الإسلام.

وقال بعض مؤرخى الإفرنج «إن محمود فتح الهند كما فتحها الإسكندر إلا أن فتوحات الإسكندر ذهبت بذهابه، أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت إلى اليوم».

ولم يكن السلطان محمود فاتحًا غازيًا عالى المكانة من الجهة العسكرية فحسب: بل كان خاقانًا عاقلاً كيسًا ناظمًا بين حاشيتى المادة والمعنى، جامعًا بين دولتى السيف والقلم، وملجأ يقصده رجال الفنون والأدب لتشجيعه إياهم؛ مما عاد على شعبه

بجزيل الفائدة حتى صارت عاصمته «غزنة» كعبة لمشاهير الشرق من رجال السياسة والفلسفة والشعر والعلوم الفلكية واللغات الشرقية؛ ومركزًا للعلم والعرفان، ومشرقًا لأشعة الحكمة والأدب، واجتمع عنده كثير من أعلام الإسلام، ونوابغ الترك كالفيلسوف الأعظم (أبى ناصر الفارابى) الذى يعد مفخرة الأتراك فى كل عصر، وأبى ريحان البيرونى، والبيهقى المؤرخ، وفى أيامه أيضًا نبغ الكاتبان الشهيران. أبو بكر الخوارزمى، وبديع الزمان الهمذانى، ولزم بابه العنصرى، والعسجدى والفرخى، وغيرهم من شعراء الفرس – كما قصده هوميروس العجم الشاعر المشهور أبو القاسم الفردوسى صاحب «الشهنامة» الذى أثبت فيها تاريخ أبطال الفرس شعرًا.

بسط محمود سلطانه على بلاد واسعة شاسعة تشتمل من ناحية الغرب على خراسان وأجزاء من العراق وطبرستان، ومن ناحية تركستان فى الشمال على ما وراء النهر وخوارزم، وعلى البنجاب كلها فى الشرق، وعلى أفغانستان فى الوسط.

ولقد خلف محمودا ابنه محمد سنة ٤٢١هـ ١٠٣٠م، ثم خلفه أخوه مسعود، وفى عهده وجهت أول ضربة قاضية إلى الدولة الغزنوية بقيام دولة جديدة فى تركستان، وهى الدولة السلجوقية، وفى سنة ١٠٣٩م (٤٣١هـ) هزم طغرلبك السلجوقى مسعودًا فى معركة حامية وقعت فى دندانقان بين مرو وسرخس فى جنوب تركستان.

ومنذ هذه الموقعة انتزعت منه تركستان وخراسان وجميع الممتلكات الغربية، وبقى ملكهم فى غزنة والهند فقط حتى قضت عليهم الدولة الغورية فى منتصف القرن السادس الهجرى.

الدولة السلجوقية

بدأ نجم الإمبراطورية السلجوقية يسطع فى سماء تركستان، وهى تنسب إلى سلجوق بن دقاق من بطون قنيق التى هى إحدى عشائر «أوج أوق» من قبائل اوغوز التركية، وكان سلجوق قد هاجر من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية، واستوطن مدينة جند على ساحل سيحون مع أتباعه وعشيرته، وأشرق على قلبه نور الإسلام فأسلم، وكانت الدولة السامانية حينئذ قد بلغت من الضعف حالة لا تقدر معها على رد هجمات الأتراك غير المسلمين الذين كانوا يغيرون على الحدود، يأخذون الجزية من المسلمين فى تخوم الدولة، أما سلجوق فإنه رد الجباة والعمال الذين أرسلهم الأتراك غير المسلمين إلى « جند » لأخذ الجزية وصد غارتهم بعد أن تغلب عليهم، ومنذ ذلك اليوم أضاءت شهرته فى تلك النواحى من تركستان، والتحقت به قبائل الأغوز، وأذعنوا لزعامته.

كانت حالة تركستان السياسية إذ ذاك فى شغب وفوضى، وكان من أثر تلك الحروب المتوالية بين الخاقانية، والسامانية أن أتيحت للسلاجقة ساحة عملية تجلت فيها شجاعتهم وبراعتهم وقيمتهم الحربية، واستفادوا كثيرًا من مساعدتهم للسامانيين ضد الخاقانيين، ولكنهم قبل كل شىء كانوا يفكرون فى أنفسهم، وينظرون ببصيرة نافذة إلى تقرير مصيرهم...

وفى هذه الأثناء لحق سلجوق بربه، وبقى أبناؤه الأربعة: إسرائيل،

وميكائيل، وموسى، ويونس.... وأصبح من بينهم إسرائيل «أرسلان» زعيمهم المبجل حاملاً للقب «يابغو»[1]، وكان تحت إمرته عدد وافر من الفرسان ذوى البأس، وكان الأمراء المجاورون يحاولون التخلص من هؤلاء الفرسان ما داموا لم يتمكنوا من استخدامهم فى محاربة عدوهم، ولما جاء خاقان الغزنويين السلطان محمود الغزنوى إلى ما وراء النهر عام (١٠٢٥م ٤١٦هـ) تحالف مع قدرخان ملك الخاقانيين. وبهذا التحالف بت فى أمر السلاجقة، فقد دبر محمود الخطة اللازمة وأسر أرسلان وشتت شمل جنده الأتراك، فهاجر الكثير منهم إلى جهات العراق، وأذربيجان بقيادة بعض زعمائهم.... على أن كثيرًا منهم لم يبرحوا تركستان، فاستقروا فى ما وراء النهر تحت إمرة طغرل بك وجغرى بك وسواهما من الأمراء المنحدرين من سلالة سلجوق، حيث كانوا يصطافون فى نورآتا، ويقضون الشتاء فى مراعى خوارزم، وقاسوا الصعاب والمشقات من الغزنويين الذين أرادوا أن يقضوا عليهم، ولكن النصر كان حليف السلاجقة فى كل الميادين، وأخيرا خرج السلطان مسعود الغزنوى بنفسه على رأس جيش جرار، وافر العد والعُدد، وكانت معركة دندانقان (بين مرو وسرخس فى جنوب تركستان) هى المعركة الفاصلة التى تم فيها النصر للسلاجقة على جيش يفوق جيوشهم فى أعداده وعتاده (١٠٤٠م) وتم لهم الاستيلاء على نيسابور والرى، واهتزت أعواد المنابر باسم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق فى خطب الجمعة والجماعات ومنذ ذلك اليوم بدأ يسطع فى سماء التاريخ نجم إمبراطورية تركستانية فتية، هى الدولة السلجوقية الكبرى، فكانت قافلة جديدة من قوافل المجد والسؤدد التى أنجبتها تركستان.

---

(١) هو لقب رسمى فى البيوت المالكة التركية قديمًا ومعناه الأمير العظيم.

بعد أن تبوأ طغرل بك عرش تركستان بدأ يعمل على توسيع رقعة هذه المملكة، فاستولى على جرجان وطبرستان، وقهستان وهمذان، وأصفهان وأذربيجان وخوزستان حتى وصل إلى بغداد أيام الخليفة القائم بأمر الله سنة ١٠٥٧م ٤٤٧هـ، فأجزل الخليفة له العطف والترحاب، وأمر الخطباء أن يخطبوا باسمه على منابر المساجد في حاضرة الخلافة، وقلده الخليفة زمام السلطنة، ولقبه بملك الشرق والغرب.

ما لبث طغرل بك بعد هذا حتى ألقى القبض على الملك الرحيم أبي نصر الديلمي آخر ملوك بني بويه، الذين غلبوا على خلفاء بغداد، وجعلوهم تحت الرقابة والحجر، وتغلبوا بتعصبهم في مذهب الشيعة وعلى حكم مذهب أهل السنة، فلم يكن بدعًا أن يستقبل الخليفة طغرل بك استقبال المنقذ العظيم الذي يرد إلى السنة مكانتها، وإلى الخلافة جلالها وعزتها، ثم تطورت الأحوال في صالح طغرل بك، إذ تزوج ابنة الخليفة، فأصبحت الخلافة والملك والنفوذ في بيت واحد وأسرة واحدة، وبهذ الفتح المبين، وهذه الرابطة القوية بينه وبين الخليفة أمكنه أن يمد لتركستان في ممتلكاتها، وأن ينشئ إمبراطورية تركية تضم إليها كل بلاد الشرق التابعة للخلافة، وبقي اسمه مسطرًا بحروف أغلى من الذهب على جبين تاريخ تركستان.

توالت الأيام وتوفي طغرل بك عقيمًا في السبعين من عمره ١٠٦٣م وقام بالأمر من بعده ابن أخيه «ألب أرسلان» وقد انتهج خطة عمه في مواصلة الفتح، وتشييد دعائم الإمبراطورية الإسلامية، فتوجه صوب مملكة الروم واستولى على شيروان، وكرجستان، وتمكن من احتلال أرمنيا وهدم شوكة ملوك الأرمن الذين كانوا أذنابًا لقياصرة الروم، وضم إمارات ديار بكر وحلب إلى بلاده،

وبذلك وجد طريقًا ممهدًا إلى الأناضول، فبعث طلائعه إلى كل جانب حتى انتهى إلى قيصرية. ومن أعظم انتصاراته موقعة «منازكرد» التى تغلب فيها على قيصر الروم (رومانوس ديوجينوس)، وكان جيش تركستان فى تلك المعركة خمسة عشر ألف مقاتل، ومع ذلك انهزم الروم أمام الترك، ووقع فيها ملكهم أسيرًا، ولكن ألب أرسلان أحسن معاملته، وبعد قليل أطلق سراحه، وسير معه عسكرًا أوصلوه سليمًا إلى بلده.

obeikandl.com

الدولة السلجوقية الكبرى

بهذا الفتح المبين والفوز الباهر، رفرف علم تركستان على آسيا الصغرى، وصارت الروم تدفع الجزية للدولة السلجوقية، ولهذا الفتح أهمية عظمى فى تاريخ العالم، لأنه كان أعظم خطب حل بالنصرانية فى الشرق. وانقصم به ظهر الإمبراطورية البيزنطية، ومن أثر ذلك صارت الأناضول وطنًا تركيًّا من جديد – إذ تأسست هناك دول تركية عظيمة تدافع عن حوزة الإسلام، وتقف فى وجه الصليبيين سدًّا منيعًا يرد أعداء الملة عن الوصول إلى حماها والنيل من عزتها، ومنذ ذلك اليوم الخالد وعلم الترك يرفرف على سمائها، وسيظل كذلك أبد الدهر إن شاء الله.

كانت وفاة ألب أرسلان فى عام (٤٥٥هـ، ١٠٧٢م) فولى السلطنة بعده ولى عهده الخاقان الأعظم ملكشاه، وسار على خطة أبيه فى الغزو والفتح، وكان موفور الحظ سعيد الطالع لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه، ووصلت فتوحاته فى الأناضول حتى شواطئ مرمرة، واستولى على القدس وأخذ من الروم أنطاكية، واورفا، وضم الشام وحلب إلى الدولة كما انضمت إليها البقية الباقية من تركستان التى كانت لا تزال بيد الخاقانيين، وأصبحت هذه الإمبراطورية التركستانية فى عهده أعظم إمبراطورية فى العالم كله، وذكر اسمه فى خطبة الجمعة من الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصى بلاد الإسلام فى الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل

إليه ملوك الروم الجزية وهم صاغرون.

فلما توفى الخاقان ملكشاه إلى رحمة الله (١٠٩٢م) أصبح الملك بوفاته منقصم الظهر، إذ بدأت عوامل الضعف تدب فى جسم الإمبراطورية، وأخذ الأمراء يتنازعون على العرش إلى أن أعلن أخيرًا الخاقان سنجر بن ملكشاه نفسه خاقانًا على الدولة (١١١٨م) وأعاد الأمور إلى مجراها الطبعى، ويعد الخاقان سنجر آخر السلاطين العظام للدولة السلجوقية إذ أنه قد استطاع أن يجمع تحت رايته جميع البلاد الإسلامية، وأن يعترف له جميع الأمراء السلاجقة بأنه الخاقان الأعظم كما كان ملك شاه، وأخضع الغوريين والغزنويين، والخاقانيين الغربيين والشرقيين بعد انتصارات باهرة عليهم، ولكنه لم يلبث أن انهزم أخيرًا فى معركة قطوان بجوار سمرقند ١١٤١م أمام الأتراك غير المسلمين الذين يقال لهم «قاراختاى»، وكانوا قد أسسوا دولتهم فى تركستان الشرقية، وتسبب عن ذلك أنه فقد ولاية ما وراء النهر، وتتابعت عليه النكبات بعد ذلك حتى فاجأه الموت عام ١١٥٨م وأصبحت وفاته سببًا لانقسام الإمبراطورية واضمحلالها، وانفصلت تركستان التى كانت أصل الدولة ومهدها عن بقية أجزائها إذ أعلن خوارزمشاه استقلاله التام، وأنشأ فى تركستان دولة جديدة تسمى بالدولة الخوارزمشاهية.... أما الدولة السلجوقية التى بقيت منفصلة عن تركستان فلم تنته بعد من الحروب الداخلية، وعلى أثر ذلك نشأت للسلاجقة دول فى أطراف هذه الدولة، هى سلاجقة كرمان، وسلاجقة الروم، أو«سلاجقة الأناضول» ولم يعش من بينها جميعًا غير دولة سلاجقة الأناضول التى مهدت لظهور الدولة العثمانية التركية فيما بعد، ثم لم تلبث الأيام أن أظهرت عدة

دويلات تركية أخرى، كلها من البيوت السلجوقية، تأسست على أنقاضها، وتعرف بالدول الأتابكية، وأهمها: الدولة الأرتقية، وأتابكة دمشق، وأتابكة الموصل، وأتابكة سوريا، وأتابكة سَنجار، وأتابكة الجزيرة، وأتابكة أربل، وأتابكة أذربيجان، وأتابكة فارس، وأتابكة لورستان، وشاهات أرمينية، ....

وهذه الدول التركية الصغيرة – وقد نشأت على أنقاض الدولة السلجوقية – أدى بعضها خدمات جليلة سامية للإسلام فى الحروب الصليبية. وعلى أثر ضعف الدولة السلجوقية وانقسامها ظهرت فى تركستان دولتان تركيتان، إحداهما مسلمة: وهى الدولة الخوارزمشاهية، والأخرى غير مسلمة، وهى دولة قاراختاى.

obeikandl.com

الدولة الخوارزمشاهية

كان السلاجقة قد ولوا رجلاً من أتباعهم اسمه قطب الدين أنوشتكين على خوارزم بلقب خوارزمشاه، وكان شجاعًا عادلاً، حسن السياسة، فنال بعض الاستقلال فى عهدهم، وقد تم الاستقلال لأبنائه من بعده حينما ضعفت الدولة السلجوقية. وقد بلغت دولتهم أوج عظمتها وعزها فى أيام تكش بن إيل أرسلان، وهو من أعظم رجالات هذه الأسر مجدًا حيث استولى على خراسان والرى وأصفهان، وما جاورها. وقضى على الحكم السلجوقى فى العراق، وانتقل إلى حوزته العراق العجمى بما فيه الرى وهمذان، وقد ألحق الهزيمة بجيش الخليفة الناصر عند همذان (١١٩٤م ٥٩٢هـ). وكان قد طلب إليه أن يتخلى عن البلاد التى فتحها، ويرتد إلى الشرق، وحين تربع ابنه قطب الدين محمد على العرش استولى على أفغانستان وانتزعها من الدولة الغورية، كما استولى على إيران كلها، وسلخ ما وراء النهر من «قاراختاى» وامتد من شواطئ سيحون إلى سواحل دجلة، ولما كانت هذه الدولة فى الأصل شعبة من الدولة السلجوقية الكبرى، فقد حافظت على النظم والتقاليد التى كانت مرعية عند السلاجقة، وصارت على سنتهم فى تشجيع العلماء، وتشييد المدارس، كما كانت قدوة حسنة لملوك الأتراك جميعًا.

ولهذه الدولة أحسن الأثر فى خدمة الآداب الفارسية، وفى اللغة

التركية كذلك، وكانت تذكر بعظمة الدولة السلجوقية، وتعد من أعظم الدول فى آسيا لما أحرزته من انتصارات باهرة، ولعنايتها أثناء حكمها بإقامة العدل بين الناس، وبث المعارف والآداب فى مناطق نفوذها. غير أن سوء تدبير قطب الدين محمد ملك الخوارزمشاهيين، وطالعه المنحوس وحظه العاثر، قضى على هذه الدولة باعتدائه على بعض التجار من رعايا جنكيزخان، وأثار هذا العدوان حفائظ الغضب فى نفس جنكيزخان، فوجه إليه جيشه، وقامت الحرب بينهما على أشدها، وهرب خوارزمشاه والجيش فى عقبه، حتى اعتصم بجزيرة فى بحر قزوين فمات بها!! وأورث ابنه جلال الدين ملكًا مضيعًا، فجاهد عشر سنين بين الجهد والشجاعة والإقدام والصبر والإباء، ثم قتل مشردًا فى قرية من قرى الكرد.

دولة قاراختاى

أما دولة قاراختاى غير المسلمة فقد كان بدء حكمها فى بلاد منشوريا وشمال الصين، ولما انقضى عهدها من هذه البقاع، رجع الفارون من فلولها إلى الوطن الأصلى فى تركستان، وأشعلوا نار الحرب بينهم وبين ملك التركستان الخاقانى الخاقان «أرسلان خان» ولكنهم هزموا شر هزيمة (١١٢٨ - ١١٣٣م). وكان آخرون من هذه القبائل التركية الغير المسلمة قد ساروا عن طريق الشمال، ووصلوا إلى مدينة «بالاساغون» فى تركستان الشرقية، بعد اجتيازهم سواحل «ينى سای» وبلاد قبائل القرغيز، فسلخوا هذه المدينة من الخاقانيين، واعتبرت من وقتها مهدًا لدولة قاراختاى التى استطاعت بعد ذلك أن تخضع لسلطانها الدولة الخاقانية الشرقية بعد الاستيلاء على كاشغر وخوتن وغيرهما من المدن المهمة، ثم أخذت تزحف إلى ما وراء النهر وخوارزم، فتغلبت فى وقعة خجند على السلطان محمود الخاقانى ملك الدولة الخاقانية الغربية التابعة للدولة السلجوقية، كما تغلبت أيضًا فى موقعة «قطوان» شمال سمرقند سنة ١١٤١م على الخاقان الأعظم السلطان سنجر السلجوقى، حتى اضطر السلطان إلى مصالحة قاراختاى على إتاوة سنوية يدفعها إليهم، بهذا امتد نفوذهم وملكهم من بلاد القرغيز إلى مدينة بلخ، ومن خوارزم إلى صحراء الغوبى.

إن هذه الدولة كانت تركية ما فى ذلك شك، ولكنها كانت

غير إسلامية، فلهذا لم يكن التعاون بين الملك والرعية على أساس وطيد من المحبة، وكان يحصل أحيانًا بعض الانشقاق. ففى ذلك الحين قويت شوكة جنكيزخان فى منغوليا، وتغلب على كوجلوك خان رئيس قبائل نايمان، فالتجأ هذا الأخير إلى تركستان، واتصل بالأسرة المالكة اتصالاً وثيقًا بالمصاهرة، وبعد أن تزوج بابنة الخاقان أعلن نفسه خاقانًا على الدولة، وقد وقع ذلك بعد أن سلب منهم خوارزمشاه بلاد ما وراء النهر، وانتقص نفوذهم، وتقلصت حدودهم، ثم بدأت عواصف جنكيزخان تهز أركان هذه الدولة، فوجد المسلمون فرصة سانحة للثورة والانتقام، فانحازوا إلى جانب جنكيزخان الذى كان يترضاهم ويحسن سياستهم، ثم قامت الحرب بين كوجلوك خان وجنكيزخان، فكان فيها المصرع الأخير لدولة قاراختاى.

قام بعدها جنكيزخان بتوحيد الأتراك تحت راية واحدة، وحلت الدولة المغولية محل دولة قاراختاى، ودولة خورازمشاه معًا.

الدولة المغولية التركية

أول ما قامت هذه الدولة تأسست فى منغوليا، وذلك أنه كانت لجماعة المغول إمارة صغيرة من أسرة تمت إلى قبائل «تغزغز» التركية بصلة، وهاجرت من التركستان الشرقية إلى منغوليا على أثر مهاجرة الأويغوريين إليها سنة ٨٤٠م، وكان سابع أمرائها «يسوكى بهادرخان» فلما توفى سنة ١١٧٥م آلت السلطنة إلى ابنه تيموجن بالوراثة، ولم يكن هو إذ ذاك قد ناهز الثالثة عشر من عمره، ولكن الفتى كان قد بلغ مبلغ الرجال قوةً وجسمًا، فهو يمتطى صهوات الجياد طول النهار، ويجيد رماية السهام من القسى، وكان قوى النفس، فعقد عزمه على أن يخلف والده على الزعامة لرجال القبائل، إلا أن تلك القبائل أبت زعامته، وحاول الشيوخ أن يتخلصوا من منافسهم الفتى، فصاروا يطاردونه كما يطارد الوحوش، ولكنه ظل يكافح فى سبيل الوصول إلى غايته، وهى زعامة القبائل، وبمرور الزمن بدأ يجتمع حوله نفر من الأنصار ممن كانوا يلتفون حول أبيه. وقبل أن يبلغ العشرين أصبح زعيم قبيلته، فمضى يحوك الدسائس ويحارب لكى يضم القبائل الأخرى إلى قبيلته، ولم يرض بمنزلة دون منزلة الزعيم، وحارب ابن عمه «جاموقا» فغلب عليه سنة ١٢٠١م، ثم استطاع أن ينشر نفوذه بين جميع القبائل فى شرق منغوليا بعد أن غلب على طغرل خان صديقه القديم، وزعيم قبيلة «كرات» سنة ١٢٠٣م.

وبعد ثلاث سنوات استولى على غرب منغوليا بعد تشتيت قبائل «نايمان» القوية، وبذلك انضوت تحت لوائه جميع القبائل التركية وغيرها فى بلاد المغول، وجعل منها قوة واحدة، وكان هو قائدها الأوحد، وذاع صيته فى جميع السهول المترامية التى يعيش فيها قومه. وفى تلك السنة (١٢٠٦م ٦٠٤هـ) عقد تيموجين مؤتمرًا عظيمًا (قورولتاى)، اجتمع فيه جميع زعماء القبائل ورؤسائها، وأعلن الشامان (قسيس الديانة الشامانية) فى هذا المؤتمر: (أن السماء قد خلعت على تيموجين لقب «جنكيزخان») وقد أصبح اسمه من ذلك الحين «جنكيزخان» وهو فى الثانية والأربعين من عمره، ولقد كان رجلاً جبارًا مجيدًا لفنون الحرب، ومدربًا على قيادة الجيوش، شديد البطش، قليل الكلام، غليظ القلب، كثير التفكير.

واستطاع فى مدة قليلة أن يخلق جيشًا قويًا مدربًا أحسن تدريب، وجلب من الأتراك الأويغوريين، والأتراك المسلمين، والصين أسلحة جديدة ومعدات حربية، وأعد إدارة قوية ليفتح بها العالم، ثم استولى على دولة «تانغوت (هيا)» الواقعة على حدود الصين الغربية سنة ١٢٠٧م، وكان قد أخضعها إمبراطور كين (إمبراطور الصين الشمالية) منذ آن قريب، فألقت بنفسها فى أحضان ذلك الفاتح التركى الجديد، وأصبحت له أكبر عون على تحقيق آماله الكبرى، ثم تأثر إخوانه الأتراك بتلك الوحدة، فاتسع سلطانه بانضمام الأويغوريين إليها فى تركستان عام ١٢٠٩م، وانضمام «أرسلان خان» خاقان دولة قارلق التركية المسلمة الواقعة فى شمال «ينى صو» فى تركستان، وبذلك صار جنكيزخان خاقانًا عظيمًا، وعنوانًا للوحدة التركية، تخضع لسلطانه أكثر القبائل وزعمائها، وبهذا تكاثرت جموعه وتعاظم أمره.

بدأ جنكيزخان بالهجوم على الصين سنة ١٢١١م، واخترق السور العظيم، وقذف كتائبه على البلاد الواسعة فى دولة كين، أو الإمبراطورية الشمالية حتى استولى على عاصمتها «بكين» وفر الإمبراطور الصينى وجنوده أمام القوات التركية المغولية؛ فكانت هزيمة كاملة شاملة سنة ١٢١٦م ثم وجه هجومه إلى الغرب، وقضى على دولة «قاراختاى» بعد أن قتل الخاقان «كوشلوك خان» سنة ١٢١٨م.

لما فرغ جنكيزخان من فتح هذه البلاد الواسعة أراد أن يستريح من متاعب الحروب، وأرسل وفدًا من كبار المسلمين إلى السلطان قطب الدين محمد خوارزمشاه يطلب منه عقد معاهدة بين الدولتين التركيتين، وأرسل إليه الهدايا النفيسة، وطلب أن ييسر للتجار التردد بين المملكتين، فاستجاب له خوارزمشاه.

وفى سنة ١٢١٩م (٦١٥هـ) سافر تجار من مملكة جنكيزخان إلى «أترار» وهى بلدة على نهر سيحون فى حدود مملكة خوارزمشاه، فكتب واليها إلى خوارزمشاه يخبره أن هؤلاء جواسيس لجنكيزخان جاءوا فى زى التجار، فأمره بقتلهم وسلب أموالهم، فلما بلغ ذلك جنكيزخان كتب إلى خوارزمشاه يطلب منه إرسال واليه على «أترار» ليقتص منه، فكانت الإجابة قتل الرسل، فقام جنكيزخان بجميع عساكره الجرارة، وعبر نهر سيحون، وليس أمامه من يناوشه، أو يشغله عن قصده، وسار حتى أتى بخارى، ودخل هو وجنوده المدينة فدكوها دكًا وملأوا القلوب رعبًا (٤ ذى الحجة سنة ٦١٦هـ) ثم ساروا نحو سمرقند ودخلوها عنوة، وقتلوا بها من قتلوا، وفعلوا ما فعلوا.

بهذا الفتح الجديد توحد تحت راية جنكيزخان جميع بلاد

الترك فى آسيا الوسطى، فنرى أن الكتلة التركية قد تجمعت من تلك البلاد الواسعة التى كانت حياتها فصولاً متوالية من الحروب يفنى بعضها بعضًا، فأهاب بها هذا القائد التاريخى، وجعلها صفوفًا متراصة مستجمعة لمرافقها وقواها وأصبح هؤلاء الأتراك بين عشية وضحاها خلية يقظة، ومعسكرًا ملتهبًا بالحماس والحمية نحو الغزو والتوسع إذ بدأ منذ ذلك يفكر فى مد سلطانه إلى الأمم التى كانت قبل ذلك خاضعة لتركستان باعتبار أنه يحافظ على ذلك الحق، ويثأر للمهزومين، ويتبوأ مكانهم فى الملك الذى لم يستطيعوا أن يحتفظوا به فى تلك الآونة، وكان أعظم باعث على قيام هذه الحوادث والغزوات وفرار خوارزمشاه أمام مطارديه، فوجه عشرين ألفًا من خيرة جنده لفتح إيران، والقبض على خوارزمشاه، فسار هؤلاء الجند وعبروا نهر جيحون. وكان خوارزمشاه مقيمًا بغربيه يستعد، فلما علم بقدوم المغول قصد مدينة نيسابور، فقصدوها وراءه، فلما أحس خوارزمشاه بقربهم منه هرب إلى مازندران، فاقتفى المغول أثره من غير أن يعرجوا على نيسابور. وهكذا ظل خوارزمشاه ينتقل من مدينة إلى أخرى والمغول فى أثره حتى وصلوا إلى «مرسى» من بحر الخزر، ونزل إلى قلعة فيه، فعادوا عنه. وهذه الفرقة من تلك الجيوش التركية المغولية، تسمى «التتر المغربة» لأنهم ساروا ميممين غرب خراسان، ثم سارت هذه الفرقة إلى مازندران فملكتها فى أسرع وقت مع حصانتها، ولما تم لها فتح هذه المدينة استأنفت سيرها قاصدة بلاد الرى، ودخلتها على حين غفلة من أهلها، ثم سارت إلى همذان، فطلب صاحبها الأمان فأمنته هو ومن معه، ثم استأنفت المسير إلى قزوين، فدخلتها عنوة، ثم إلى أذربيجان فصالحت ملكها «أزبك خان»

وواصلت المسير بعد ذلك إلى تفليس حيث تجمع الكرج هناك، وخرجوا بحدهم وحديدهم، ولكن ذلك لم يجدهم شيئًا فانهزموا شر هزيمة، وقتل منهم من لا يحصى عدده. (ذى القعدة ٦١٧هـ).

لم تلبث تلك الفرقة التى تمثل الشجاعة فى قيادتها وأجنادها أن كرت راجعة فى مستهل سنة ٦١٨هـ بعد ذلك المجهود الجبار الذى بذلته فى كسب حروبها، وفى عودتها عرجت إلى «مراغة» فملكتها عنوة، ثم أربل كذلك، وبعدها عادت إلى همذان ثم أذربيجان ومنها إلى «دربند شروان» فاستولوا على مدينة شماخى عنوة، ثم خرجت منها إلى البلاد الشمالية، وهى «دشت قبجاق» وفيها عشائر تركية عديدة قاتلوها قتال الأبطال، ثم اضطروا تحت هذا الضغط القوى أن يتفرقوا فى جميع الأقطار، وورد منهم جمع غفير إلى مصر والشام وهم الذين أسسوا فيما بعد دولة المماليك البحرية فى مصر، وأنشأوا بها حضارة إسلامية، وآثارًا باهرة يفاخر بها الترك والإسلام.

قصدت الجيوش التركية المغولية بعد ذلك بلاد الروس، فاتفق هؤلاء مع فلول القبجاق أن يكونوا يدًا واحدة، ولكنهم هزموا أشنع هزيمة أمام القوات التركية المغولية، ثم واصل المغول سيرهم قاصدين دولة البلغار التركية سنة ٦٢٠هـ فلما سمع أتراك البلغار بقربهم كمنوا لهم فى عدة مواضع، واستجروهم إلى أن جاوزوا مواضع الكمناء، فخرجوا عليهم من ورائهم، فقتل منهم كثير جدًا... هذا طرف من أخبار طائفة صغيرة من القوات التركية المغولية فى الغرب.

مدى اتساع إمبراطورية جنكيزخان

ذكرنا أن جنكيزخان سير تلك الفرقة من جيشه لطلب خوارزمشاه وفتح إيران وأذربيجان والقوقاز، والبلاد الشمالية – أما هو فقد أقام بسمرقند، وهناك سير جيشًا آخر عليه أحد أولاده لملكتى خراسان وأفغانستان، فتدفقوا نحو الهند، وعبروا النهر، وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم، وتسلموا المدينة سنة ٦١٧هـ ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئًا بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة، ولم يمض إلا القليل حتى دخل معظم الشرق الأوسط تحت حكم الإمبراطورية التركية المغولية، فتم بذلك لجنكيزخان مملكة عظيمة واسعة، مترامية الأطراف تبدأ شرقًا من المحيط الهادى، وتنتهى غربًا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس والبلغار، وجنوبا بلاد الهند، وشمالا بالبحر الشمالى.... كل ذلك تم له فى مدة قصيرة.

وقد مات جنكيزخان سنة ١٢٢٧م (٦٢٤هـ) بعد أن قسم ملكه العظيم بين ثلاثة من أبنائه.

«جغتاى خان» و«جوجى خان» و«أوقتاى خان»، – أما رابع أبنائه (تولى خان) فقد جعله خليفة له فى عرش «قاراقورم» وفى الرئاسة العامة على إخوته الثلاثة كذلك، ، ، ولم تلبث الأيام أن رفعت نجم أخيه «أوقتاى خان» عاليًا إذ تم انتخابه خاقانًا أعظم فى مجلس الأعيان المنعقد فى أوائل عام ١٢٢٩م، فاتبع هذا الخاقان العظيم

سنة أبيه، فامتدت الفتوحات إلى أرجاء واسعة، وأخضع البقية الباقية من الصين، وأرسل جيشًا لفتح أوروبا، وعلى رأسه «باتوخان بن جوجى خان» وانتخب القائد المشهور «سبوتاى» ليكون مستشارًا له. فتقدم الجيش نحو الروسيا، واخترق الغابات فى طريقه حتى ظهر أمام مدينة «ريازن» فهدم سورها وضرب حصونها ثم استولى عليها فى ديسمبر سنة ١٢٣٧م، كما استولى بعد ذلك على «موسكو» نفسها، ولم يلبث أن تقدم نحو «كييف» واستولى عليها عنوة، وعندئذ انقسم الجيش إلى قسمين، كانت وجهة أولهما بلاد المجر تحت قيادة باتوخان، أما الثانى فاتجه إلى بولندا تحت قيادة «بيدارخان» وفاز كلا الجيشين بانتصارات باهرة حتى التقيا سويًا فى فينا.

فى هذه الأثناء ورد نبأ موت الخاقان الأعظم «أوقتاى خان»، وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٢٤١م، وقد خلف أوقتاى خان ابنه كيوك خان فحكم مدة سنتين ثم مات. وبموته اندلعت نيران الفتن الداخلية وكان وقودها المنافسة بين أسرتى أوقتاى خان وجغتاى خان. وكان نتيجة ذلك أن انتقلت الملكية من أسرة أوقتاى إلى أسرة تولى، فآل الملك إلى «مانجوخان». وبعد أن تم له الأمر غزا بلاد التبت وأخضعها، وعين أخاه قوبلاى خان حاكمًا عامًا لبلاد الصين، وقد فتح جزيرة «كيوشو» من جزر اليابان، وولى أخاه الثانى "هولاكو" قيادة حملة لغزو بلاد العراق وسوريا، فكانت أعماله شرًا مستطيرًا على المسلمين.

وبعد وفاة مانجوخان خلفه أخوه الأصغر «آريق بوغاخان»، ولم يمض فى الحكم إلا سنة واحدة اختلف فيها الزعماء من أطراف تلك الإمبراطورية المتامية من بلاد المجر وبولندا وسوريا وآسيا

الصغرى والعراق والصين واليابان؛ وقد انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب الخاقان قنودى بقوبلاى خان خاقانًا على الإمبراطورية. ولكن هذا المؤتمر لم يكن ممثلاً لكل الزعماء، بل كان مشتملاً على أنصاره وهيئة أركان حربه فقط، فانقسمت الإمبراطورية بذلك إلى أربعة أقسام.

(١) **الإمبراطورية الشرقية**: وعاصمتها بكين، وتشمل بلاد الصين ومنغوليا والتبت، وبعض الجزر اليابانية، وقد ورثها أبناء قوبلاى خان وأحفاده.

(٢) **الإمبراطورية الغربية**: وحاضرتها بغداد؛ وتضم بلاد فارس والعراق، وتتمتع بنفوذ قوى فى سوريا وآسيا الصغرى، وقد ورثها أبناء هولاكو وأحفاده.

(٣) **الإمبراطورية الشمالية**، أو إمبراطورية (آلتون أوردو)، وتشمل حوض نهر الفولجا وسواحل البحر الأسود الشمالية وبلاد روسيا الأصلية، وأوروبا الشرقية وقد ورثها أحفاد جوجى خان.

(٤) **إمبراطورية تركستان**، وهى تشمل بلاد تركستان الشرقية والغربية عدا خوارزم، ويطلق عليها أيضًا: «إمبراطورية جغتاى» نسبة إلى جغتاى خان بن جنكيزخان الذى كان نصيبه ملك تركستان ضمن الأقسام الأربعة التى قسم إليها أبوه هذه الإمبراطورية العظمى، على أنه لم يكن مستقلاً بالملك فى حياة والده، إذ كانت الإمبراطورية – كما أسلفنا – مقسمة بين أبناء جنكيزخان، وكان هؤلاء الملوك تابعين للخاقان الأعظم، وكان يحكم إقليم ما وراء النهر فى حياته محمود يلاوج ثم ابنه مسعود باسم «الخاقان الأعظم».

ويعتبر المؤسس الحقيقى لهذه الدولة قارا هولاكو حفيد جفتاى خان. وكان الخاقان الأعظم كيوك خان قد عين «بيسو مانجو خان» ولى عهد له، ولكن حدثت بعد ذلك منازعات وخلافات أدت إلى أن يكون السلطان هو آلغوخان حفيد جفتاى خان لا «بيسو مانجو خان». وقد أسس إمبراطورية مستقلة فى هذه البلاد حيث جعل تحت صولجانه تركستان الكبرى وبلاد أفغانستان، وأعلن استقلاله، وبعد وفاته سنة ١٢٦٥م خلفه قايدوخان من أسرة أوقتاى خان، ثم ابنه جابارخان ١٢٦٦م، وبعدها انتقل الأمر إلى أسرة جفتاى خان السابقة ١٣٠٦م، وآل الملك إلى «دوواخان» وأصبح هو المؤسس الحقيقى لإمبراطورية جفتاى.

وفى سنة ١٣٢٦م تبوأ عرش تركستان «طرماشيرين خان» واعتنق الإسلام، وأسلم كذلك بعد قليل السلطان «توغلوق تيمورخان» (١٣٤٧ -١٣٦٣) الذى أسلم بإسلامه ١٦,٥٠٠ نفسًا من أسرته وقواده فى يوم واحد فى كاشغر، ومنذ سنة ١٣٤٧م بدأ دور الانحطاط فى هذه الدولة، وأصبح أمر البلاد فى يد القواد، بينما كان السلاطين فى شبه عزلة سياسية، وكأن أمر الحكم لا يعنيهم.

الدولة التيمورية الكبرى

ظل الأمر على ما ذكرنا حقبة من الزمن إلى أن جاء البطل الأوحد، والفاتح الأعظم «تيمورلنك» فأسس الدولة التيمورية الكبرى، وكان تيمورلنك رجلاً من أدهى رجال الحرب فى تاريخ البشرية على الإطلاق، وزعيمًا من أقدر الزعماء على بعث الأوطان بعد اضمحلالها، جبار الجسم، خارق القوة.

ولد فى مدينة (يشيل شهر «شهر سبز»)، من أبوين تركيين من قبيلة «بارلاس» التركية النبيلة، وترعرع فى ربوعها، وظهرت عليه منذ صغره مخايل الذكاء والشجاعة، حتى أنه كلف بتذليل الخيول الصعبة القياد، وبصيد الوحوش مع أمثاله من الشجعان. وكان مثار الدهشة بين أترابه وزملائه بما كان يظهره من تفنن وبراعة فى ركوب الخيل ودقة الرمى فى القنص والصيد. وكان والده «تورغاى» شيخًا لقبيلته، ينفق أكثر وقته فى صحبة الفقهاء وعلماء الدين من المسلمين، وأما والدته فقد ذهب بها الموت وهو صغير، ولم يفكر أحد فى تدريب تيمور وتعليمه، ولكنه كان أستاذ نفسه، يتعلم وحده، ويختبر الدنيا بنفسه.

غادر تيمور بلده متوجهًا إلى سمرقند، لا يملك إلا سيفه، وليس له من الحرس غير خادمه الأمين عبد الله، وانتقل بنفسه إلى وسط جديد، كله حماس ونشاط، حيث يعيش بين الجنود والأبطال الذين لا يعتمدون على غير السيف فى هذه الدنيا المتقلبة، وتلك الحياة

المضطربة، فانخرط فى خدمة الأمير «قازغان» نائب الخاقان، وخاض غمرات الحروب، فأظهر فيها من البأس وشدة الشكيمة والمهارة ما رفعه فى عين قومه فوق رفعته بنسبه وشرف منصبه.

فلما وجده الأمير «قازغان» شابًّا جريئًا قد يفيده فى المستقبل رأى أن يزوجه فتاة من أنسبائه، ورقاه إلى رتبة (مكباشى «رئيس الألف») وقد تمكن الأمير قازغان نائب الخاقان بواسطة تيمور من النجاح فى عدة غزوات شمالاً وغربًا.

ولما مات الأمير قازغان حدثت فى البلاد ثورات واضطرابات، وأخذ كل واحد من الأمراء ورؤساء القبائل يستعد للدفاع عن أملاكه، وعلى محاربة غيره إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان الخاقان توغلوق تيمورخان فى مدينة «المالق» يراقب الحوادث، فلما رأى أن مملكة قازغان قد تمزقت أوصالها سقط عليها بجنده، ولما رأى بقية الأمراء أن جموع الخاقان الأعظم تتقدم نحوهم انسحبوا جميعًا وهربوا من وجهه، ولكن تيمورلنك أظهر الخضوع، واعترف بسلطانه فعهد الخاقان إليه بالإمارة على قبيلة بارلاس، ورقاه إلى رتبة «تومن بكى» أى (رئيس عشرة آلاف من الجند). ولما أقام الخاقان ابنه «إلياس خوجة أوغلان» حاكمًا على البلاد جعل تيمور مستشارًا له، غير أن شقاقًا وقع بينه وبين وزراء إلياس لم يلبث بعده أن جمع رجاله وأعلن الثورة ليهاجم رجال الخاقان ويكسر شوكته. فلما علم الخاقان بثورته أصدر أمرًا بإهدار دمه، ففر تيمور من وجهه حيث لاقى من الأهوال شيئًا عظيمًا. كل هذا جعل ذويه وأصدقاءه يتفرقون عنه بعد أن ذهبت الأيام بشوكته المكتسبة والموروثة عن أجداده، وحتى الثورة أيضًا تبخرت فى خضم هذه الكوارث ولم يبق منها سوى جوَاده، ولكن الشدائد ما

كانت لتؤثر فى روح تيمور القوية، بل على العكس من ذلك كانت تشحذها، وتجلو فى نفسه كل معانى الرجولة الكاملة، ، فبينما هو طريد شريد هائم، لا يكاد يملك قوت يومه وضع لنفسه تصميمًا لإنقاذ وطنه من ظلم الخاقان، وإعادة مجد تركستان، بل إن نفسه العظيمة كانت تجول فيها خواطر فتح العالم بأسره، فوطد عزمه على تنفيذ ذلك، ولو كلفه خرط القتاد وفعل المستحيل (على قدر أهل العزم تأتى العزائم).

فى هذه الأثناء اجتمع مع الأمير حسين شقيق زوجته، وكان هو الآخر فارًّا من وجه الخاقان، ووجد فى نسيبه عونًا صادقًا، ونصيرًا جديدًا، وإن كان هذا الأخير يعتقد فى نفسه الشرف وعظم الشأن أكثر من تيمور ذاته إلا أن زوجة تيمور كانت سببًا فى التوفيق بينهما، فاتفقا أمام الخطر الداهم، وخاضا غمار الحروب معًا، وفيه جرح تيمور فى يده ورجله، فأصابه العرج من وقتها، فسمى لذلك «تيمورلنك» (تيمور الأعرج).

ما لبث تيمورلنك بعد ذلك أن استعاد قوته وعزه شيئًا فشيئًا، واقتاد السعد إليه مرغمًا حتى نودى به خاقانًا على التركستان الكبرى فى جمعية الأعيان التى انعقدت فى مدينة سمرقند سنة ١٣٦٩م، وكان عمره إذ ذاك أربعًا وثلاثين سنة.

فى الأيام التالية أخذ تيمور ينظم شئون المملكة، ففى أقل من عشر سنين استولى على تركستان الشرقية وخوارزم، وهب يطارد أعداءه أينما كانوا، ويقذفهم بالكتيبة تلو الكتيبة من أشياعه وأنصاره، ورجاله وأتباعه، لا يترك لهم فرصة للراحة والاستعداد، وبذلك استطاع تيمور أن يوطد ملكه، ويضم ولايات تركستان بعضها إلى بعض، ويؤلف وحدة سياسية بينها، حتى يتمكن بعد

ذلك من مد فتوحاته العظيمة إلى أطراف المعمورة، ، ، ولم يكتف تيمور بما وصل إليه من عظم الشأن وضخامة السلطان، فراح يطلب أن يضم إلى تركستان كل البلاد الواقعة حولها، ولذلك تدرج فى فتوحاته، واستولى على هرات وما حولها. وبافتتاح هرات اتسعت مملكته – لأن هذه وحدها – كانت تضم ربع مليون من الأنفس، ومئات من المدارس، وثلاثة آلاف حمام، وعشرة آلاف مخزن تجارى.

وفى هذه الآونة هرب «توقتامش خان» أحد أمراء القريم إلى بلاط تيمور، وكان من أتباع «أوروس خان» خاقان الدولة المغولية الأوروبية، أى: «دولة آلتون أوردو»، فجاء بعض رجال الخاقان فى طلبه من تيمور، فلم يقبل رده، بل شد أزره ببعض رجاله حتى مكنه من الجلوس على عرش المملكة التى كان طريدًا منها، ولكن توقتامش لما وصل إلى العرش أصبح رجلاً غير ذلك الأمير الهارب الذى جاء يطلب مساعدة تيمور، وطمع فى عرش تركستان نفسه، فهاجم حدود تيمور وقت أن كان فى جولة له ببعض جهات خراسان، فما أن جاء الخبر حتى سار إليه برجاله، فهرب توقتامش، ولكن غيابه لم يطل كثيرًا، فتقدم نحو تركستان مرة أخرى؛ وأمر تيمور جنده بالتقدم نحو توقتامش حتى هرب، فتقدم تيمور فى أثره إلى عاصمته « سراى » ومزق شمل رجاله فهرب بعضهم وانضم الآخرون إلى تيمور الفاتح.

اتجه بعد ذلك إلى موسكو ففتحها، وسحق مدينة دون، واستولى على البلاد الروسية كلها، ثم عاد إلى تركستان بطريق جديد، ونزل القوقاز، واستولى عليها، ثم مشى إلى بلاد خراسان بجنده وجيشه، فدفعت له الجزية أربعة عشر مدينة، ووصل إلى

عاصمته سمرقند بعد فتوحات عظيمة.

توجه تيمور بعد ذلك إلى بلاد فارس، لأن الحالة الاجتماعية هناك لم تكن تبعث على الرضا، فقد كان ملوكها وأمراؤها لا يفكرون فى غير مصالحهم الشخصية وملذاتهم الدنيوية، وإلى كافة ألوان المرح والعبث واللهو، ويتركون البلاد وشأنها، لا يعملون على تحسين الحالة، واستتباب الأمن، فنزل تيمور إليها على رأس سبعين فرقة من أبطال تركستان حتى أشرف على أصفهان. فما كاد أن يصل ويحط رحاله خارج المدينة، حتى خرج كبارها يسلمون عليه، ويعرضون طاعتهم وخضوعهم، ولكن لم يأت الليل بظلامه الساتر حتى خرج الناس من بيوتهم، وقتلوا من التركستانيين ثلاثة آلاف نفس، فيهم عدد لا يستهان به من الأكابر والقواد غضب تيمور لما حل بأبناء وطنه، ورجال حاشيته وقواده فأمر كل فرد من أفراد جيشه أن يحمل إليه رأس فارسى، وكان عدد جنوده سبعين ألفًا وعلى أثر ذلك وضع تيمور يده على كل بلاد فارس، ودفعت له الجزية كل المدن، وذكر الخطباء اسمه على المنابر، ثم تدفق بجيوشه نحو الفرات فتغلب على السلطان أحمد جلاير، وكان ظالمًا فأنقذ رعاياه من جوره، واستولى على بغداد، ثم صار صوب الهند، وعبر نهر الهندوس، وتم له فتحها فى مدة وجيزة، ودخل دهلى عاصمة الهند فاتحًا منتصرًا، واغتنم منها ما لا يعد ولا يحصى من الجواهر والأموال، وبهذا دانت له جميع ربوع آسيا، ولم يبق أمامه إلاّ بلاد العرب والبلاد العثمانية التى سيأتى دور كل منها فيما بعد.

عاد تيمور من حرب الهند فى شهر مايو سنة ١٣٩٩م، وفى شهر يوليو من نفس السنة ركب على رأس جنده ومضى يزحف على

البلاد العربية، فغزا سوريا، والشام وحارب السلطان بايزيد خاقان الدولة العثمانية التركية وأسره مع ابنه (٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢م) واستولى على الأناضول كلها ورفرف علم تركستان فى سمائها، ووحد الأتراك تحت راية واحدة فتقدم إليه سلطان مصر بالطاعة بعد الانتصار العظيم وأرسل الهدايا والتحف، وسجن صاحب بغداد ألد أعداء تيمور إرضاءً له.

وأما ملوك أوروبا فقد وقفوا مدهوشين ذاهلين يخطبون وده ويرسلون الرسل والكتب إلى تيمور سيد آسيا وخاقان تركستان.

هذا هنرى الرابع ملك إنجلترا الذى يحارب زعماء الجرمان بعيدًا عن عاصمة ملكه كتب إلى تيمور يهنئه بانتصاراته العظيمة.

وهذا شارل السادس ملك فرنسا بعث بتقديره وإعجابه إلى تيمورلنك خاقان تركستان ومعه كتاب وبعض الهدايا.

وأما عمانوئيل إمبراطور بيزنطة فيقدم طاعته لتيمور، ويبعث إليه بالهدايا والتحف. وأما السفن الجنوية فقد رفعت علم تركستان على مقدمتها، وأرسل الدون هنرى ملك قشتاله فى إسبانيا نبيلاً من رجاله إلى تيمور، فلحق الرسول بتيمورلنك حتى وصل إلى سمرقند عاصمة تركستان وراح يكتب عن مشاهداته.

وعاد هنرى الثالث فأرسل إلى تيمور وفدًا آخر برياسة النبيل «كلافيجو» فذهب هذا إلى آسيا الصغرى فوجد تيمورًا قد تركها عائدًا إلى سمرقند فلحق به وفاقًا للأوامر المعطاة له.

ولما رجع تيمور إلى تركستان راح ينظر فى ما جرى فى غيابه وما قام به نوابه من الإدارة والإحسان فأمر بقطع رءوس بعضهم وأثنى على البعض الآخر من المخلصين وقدرهم وأعلى شأنهم. وأمر

البنائين بإنشاء قصر جديد تكون حجارته بيضاء لامعة وأحس فى نفسه قوة جديدة فصمم على فتح الصين وزحف إليها بجيشه العرمرم ولكن الموت داهمه فى الطريق فأسلم الروح بالقرب من مدينة «أوترار» ١٧ فبراير سنة ١٤٠٥م وهو ابن سبعين سنة ونقل جسده إلى العاصمة ودفن بها.

ولقد أعقب موت هذا الخاقان العظيم بعض الاضطرابات السياسية فى البلاد وقد استطاع ابنه « شاه رخ » أن يثبت سلطانه على معظم ملك أبيه، ويكبح الثائرين من أقاربه، وبعد أن توفى تمكن ابنه «أولوغ بك» أيضًا من المحافظة على إمبراطورية تركستان وممتلكاتها من الهند إلى العراق ونشطت فى عهدهم العمارة والحضارة واستبحر العمران واتسعت التجارة وامتد السلام على الإمبراطورية.

وقد أكثر تيمورلنك وأحفاده من الإصلاحات النافعة فى تركستان، فعنوا بالزراعة واهتموا بالرى، ومهدوا الطرق، وأمنوا السبل، وقد افتخر تيمور فى نظاماته «توزوكات» بأنه أعاد الأمن إلى ربوع آسيا بحيث أصبح يتسنى للصبى الصغير أن يسير بكيس من ذهب من شرق البلاد إلى غربها آمنًا مطمئنًا.

وعنى تيمورلنك بتأسيس المدارس والمساجد والجوامع والمراصد والمكاتب والمصانع والمستشفيات. وتقدمت فى عهده الفنون الصناعية والتجارية والزراعية، فنشطت التجارة وصارت تزدهر متاجر البلاد القاصية من الشرق والغرب، فازدحمت تركستان بساكنيها، وصارت مركز تجار الشرق. وقد ابتنى فيها القصور الشاهقة والرياض النضرة، وحذا حذوه أبناؤه وأحفاده، فوصلت تركستان إلى قمة المجد والشهرة.

وكان أبناء تيمور وأحفاده (شاه رخ، وأولوغ بك وحسين بايقرا، وخليل سلطان، وبابرشاه) ماهرين فى العلوم والرياضة والهندسة والفلك. وبنى أولوغ بك حفيد تيمور مرصد سمرقند وإليه ينسب زيج أولوغ بك أو الزيج الجديد السلطانى، وترجم الأوروبيون كثيرًا من كتبه، واستفادوا من بحوثه وتدقيقاته، وكان عصر الدولة التيمورية عصر ازدهار للآداب والفنون. وكان بنو تيمور يعنون بالكتب وينظمون الشعر، وكثير منهم أجاد فى شعره. فالسلطان «حسين ميرزا» كان فى شعره جليل القدر عالى الكعب، وشعره التركى يفوق شعر كثير من شعراء وقته، وقد كتب أيضًا بعض آثاره باللغة العربية.

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية «إن بنى تيمور كانوا فى أساليب حياتهم يشبهون أمراء أوروبا المعاصرين، أو أمراء فرنسا فى القرن الثامن عشر، ولكنهم كانوا فى الأدب أعظم أثرًا. كان شاه رخ وأولوغ بك وباى سنقر والسلطان حسين محبين للكتب، يعنون بالإجادة فى نسخها وتذهيبها وتحليتها. فهم لا يقلون عن معاصريهم دوقات برجندى (Bergundy)، ولا يقاس بهم عشاق الكتب فى إيطاليا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وكان باى سنقر والسطان حسين فى إيران كما كان موريس فى انجلترا، إذ أنهم بعد أربعة قرون لم يكتفوا بجمع الكتب بل خلقوا فنونًا لها. ولا يمكن أن يقاس بالكتب الشرقية فى ذلك العصر أجمل ما عرفت أوروبا من الكتب. وكان باى سنقر خاصة مولعًا بالفنون الكتابية فنشأ فى رعايته أجمل الأساليب فى صناعة الكتب. وهو من أعظم المولعين بالكتب فى العالم كله. كان

يعمل بأمره وتشجيعه أربعون صانعًا فى نسخ الكتب، وبلغت العناية بالورق والتصوير والتجليد حدًّا لا يعرف نظيره اليوم، وصنع فى قصورهم من السلاح والدروع والأدوات والآنية المحلاة بالعاج ما لم تعرف مثله الأقطار الأخرى. وقد نبغ فى هذا العصر كثير من الكتاب والمؤلفين، وقد عد المؤرخ خواندمير فى كتابه «حبيب السير» زهاء مائتين من الكتاب والمؤلفين فى ذلك العصر.

وقصارى القول إن عصر تيمور وأبنائه كان أزهر العصور للعلوم والفنون والصناعة والزراعة. وفى ذلك العهد تقدمت اللغة التركية تقدمًا باهرًا، وأنجبت تركستان أعظم شعراء الأتراك وأكبر أدبائهم وهو «مير على شير نوايى» الذى أجمع مؤرخوه على أنه كان من الأفذاذ الذين تزين بهم تاريخ الإسلام.

فلما انقسمت الدولة التيمورية وعم النزاع فى تركستان واشتد الاضطراب استطاع «محمد ظهير الدين بابر» من أحفاد تيمور أن يؤسس فى الهند دولة مستقلة لنفسه تعد من أعظم الدول التى عرفها تاريخ الإسلام. سيطرت على الهند كلها حينًا وبقى سلطانها فى تلك البلاد إلى سنة ١٨٥٨م ١٢٧٥هـ ثم اغتصبها الإنجليز من أبناء تركستان وأصبحوا حكامًا غير منازعين.

وأما فى تركستان فقد حلت الدولة الأزبكية محل الدولة التيمورية وحفظت مجد تركستان وعظمتها، إلا أن ملوكها كانوا محبين للسلام، بعيدين عن الحرب ما لم يكرهوا عليها، وأعظم ملوك هذه الأسرة السلطان أبو الفتح محمد خان الشيبانى «شايبان خان» وابن أخيه السلطان عبيد الله خان وكانوا من أسرة جنكيزخان.

وجملة القول إن القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر يعد من أزهى العصور التى تبوأت فيها الأمة التركية أوج عظمتها،

فقد انتصر العثمانيون فى فتوحاتهم شرقًا كما امتدت فتوحاتهم إلى «فينا» غربًا. وكان النصر كذلك حليف التركستانيين فقد امتد سلطانهم فى الجنوب إلى خليج البنغال فى الهند.

وفى سنة واحدة (أعنى سنة ١٥٢٦م) خدمت الأقدار كلا الجانبين من الأمة التركية، فقد استولى العثمانيون بعد واقعة «موهاش» على ما يتاخم نهر «طونا» فى الغرب، كما استولى التركستانيون بعد واقعة «بانيبات» على حوالى نهرى هندوس وكنج وبلاد الهند الوسطى فى الجنوب، وأما فى جهة الشمال فقد رأينا الأتراك القازانيين يبسطون نفوذهم وسلطانهم على بلاد الروس. ونستطيع هنا أن ندع المؤرخ الفرنسى الشهير (duoerS) يحدثنا بعبارة موجزة عن جلال ذلك العصر التركى الزاهر فقد قال «إن القرن السادس عشر الميلادى عصر ازدهار للأتراك حيث أسسوا إمبراطورية عظيمة أوسع من الإمبراطورية العربية وإمبراطورية إسكندر تمتد من بحر أدرياتك حتى نهر كنج وخليج البنغال ومن الشمال روسيا حتى بلاد الغرب وفى قارة أفريقيا حتى الصحراء».

وفى الحق أن هذا العصر لم يكن له مثيل فى جميع العصور التى مرت على الدول التركية الإسلامية، يستوى فى ذلك التفوق السياسى والمقدرة العسكرية والثورة الاقتصادية والنهضات الأدبية والصناعية والعلمية. وقد تلألأ فى سماء هذا العصر كواكب مشرقة من الشخصيات الفذة الممتازة؛ أعنى أولئك العظماء والعباقرة الذين هم مفاخر الأتراك على الدهر كله. فمنهم السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانونى والسلطان محمد ظهير الدين بابر والسلطان جلال الدين أكبر، والسلطان أبو الفتح محمد شاياق خان، والسلطان عبيد الله خان، والسلطان

عبدالرشيد خان، ، ، كان هؤلاء السلاطين العظام خير عنوان لمجد الأمة وعزتها لا فى الملك والسياسة والكفاءة العسكرية فحسب بل كانوا السباقين فى حلبة البيان، والبارزين فى ميدان الشعر والنثر ولا زالت مآثرهم الأدبية الخالدة منقوشة على جبهة التاريخ بأحرف ذهبية لا تمحى. ها هى سيرة بابر «بابرنامه» ودواوين الملوك الآخرين تناجينا بعبقريتهم الخالدة وأفكارهم السامية. ولم يكن التفوق قاصرًا على الملوك فقد كان ثمة عظماء وأبطال غيرهم مثل على شير نوايى وفضولى من صفوة أعلام الأدب التركى، وسنان باشا من خيرة رجال المعمار، وطرغود وخير الدين بربروس من أبطال البحرية البارزين. وفى هذا العصر تربع الأتراك على عرش الخلافة الإسلامية (١٥١٧م) ورفعوا لواءها. وأصبحوا زعماء الأمم الإسلامية وقادة العالم الإسلامى والتفت حولهم قلوب المسلمين فكانوا معقد رجائهم، وقبلة أمانيهم، وقد أحاطوا أشخاص السلاطين بالحب والإكبار فتوحدت الكلمة بعد شقاق، واجتمعت القلوب بعد افتراق. وتستطيع أن تقول إنها أكبر ظاهرة فى تاريخ هذا العصر وتلك الخلافة الإسلامية التى كان نفوذها لا يقتصر على ميدان السياسة والحرب أو النفوذ الدولى بل كان المسلمون يدينون لهم بالطاعة مخلصين ويتسابقون إلى حبهم مختارين.

بوادر الضعف

أصاب الأمة التركية فى تركستان ما يصيب الأمم القوية عندما تتسع ثروتها، وتعظم دولتها، فيعمد كبراؤها إلى الترف، والتماس أسباب النعيم، فيتركون حياة التقشف؛ ويستمرءون ملاذ الحياة، وأطايب العيش. وقد جرت هذه السنة على الأتراك فخدعتهم بهارج الدنيا، ومالوا مع حكم الشهوات فهاموا باللذات هيامًا، وأصبحوا كأصحاب الكهف نيامًا، فذهب ريحهم وأسرعت إليهم بواعث الدمار، وأسباب الانحلال. وقد بدأت عوامل الضعف منذ القرن السادس عشر نفسه. وكانت الظاهرة الأولى من اضمحلالهم أن الدولة القازانية انعكست آيتها، وقلب لها الزمان ظهر المجن سنة ١٥٥٦م فبعد أن كانت تحكم على روسيا، أصبحت هى تابعة لها. وهكذا شاءت الأقدار أن يصبحوا مقودين بعد أن كانوا قادة، ومسودين بعد أن كانوا سادة.

ومنذ ذلك الحين بدأ الروس يعدون العدة لتمكين دولتهم، وبسط سلطتهم، وتوجهوا بوحشيتهم البربرية، وتقدموا زاحفين صوب الشرق لإخضاع تلك البلاد الإسلامية الشاسعة، والقضاء على أبنائها الآمنين المطمئنين، فقد استولوا على الواحدة تلو الأخرى من هذه المملكة الإسلامية الشاسعة حتى وصلوا إلى أقصى حدود تركستان الكبيرة.

وما كان للروس ولا لغيرهم أن تدنس أقدامهم أرض هذه البلاد

الإسلامية لو لم يكن التركستانيون قد دبت إليهم عوامل الشقاق وبوادر النفاق، وانعدمت من بينهم كل معانى الألفة والوفاق، وانفصلت كل ولاية عن غيرها. وقامت كل منها تعلن استقلالها، فتمزقت روحها المعنوية، وجامعتها القومية، فبذلك وجد الروس منفذًا إلى تلك الأمة كلها. وكانت التركستان إذ ذاك مقسمة إلى الدويلات الآتية: (١) الدولة الأزبكية بما وراء النهر. (٢) دولة بنى يادكار بخوارزم. (٣) دولة بنى بك قوندى فى الشمال الغربى وسيبريا وتسمى هذه الدولة خانات سيبريا أيضًا. (٤) دولة أمراء مانغيت – نوغاى فى غربى ولاية قازاقستان وتمتد من بحيرة «بالقاش» إلى نهر «إيديل». (٥) دولة سلاطين قازاق فى الشمال الشرقى لقازاقستان. (٦) دولة بنى جغتاى (دوغلات) فى تركستان الشرقية وولاية يتى صو.

ما كاد الروس يشعرون بتصدع ذلك البناء العظيم، وانقسام الكتلة التركستانية إلى مزق وأشلاء فى شكل دويلات وممالك حتى مدوا مخالب النسور وأنياب الذئاب الضارية لابتلاع ذلك الملك الشاسع، وهدم ذلك البنيان الراسخ الذى بقى على الزمان قويًا لم تنل منه العواصف الذاريات، والحوادث القاسيات. ولم تستطع الدول شرقيها وغربيها قديمها وحديثها أن تنال من أركانه أو تدنو من مكانه، انتهزوا فرصة هذا الانقسام، ووجهوا هممهم إلى هدم ذلك الركن من صرح الإسلام، وتقدموا بقضهم وقضيضهم وأغاروا أول الأمر على دولة بنى بك قوندى – التى كانت تحكم سيبريا والشمال الغربى من تركستان فاستعد الملك «كوجم خان» الدفاع عن بلاده والزود عن كيانه، فجمع الأجناد من أقطار مملكته وأقام استحكامات على سواحل نهر «ايرتيش» تحت جبل «جواش» وولى

أحد أقاربه «محمد قل» قيادة الجيش العامة لمحاربة الروس ومعه كثيرون من الفرسان فوقع أول القتال بين الفريقين قريبًا من نهر«ايرتيش» واستعرت نار هذه الحرب حين تلاقى الجيشان.

وأبدى جيش «محمد قل» من ضروب البسالة والإقدام ما هو معروف ومشهور فى طبيعة الأتراك. ولكن الروس كانوا قد أمطروا الموقعة بألوف مؤلفة من الجنود فاستطاعوا أن يفوزوا فى هذه المعركة، ثم وقعت المعركة الثانية على نهر «ايرتيش» واشتد الأمر هناك فخرج كوجم خان من الاستحكام، وصعد فوق جبل «جواش» يراقب الحالة بنفسه. وفوض أمر الاستحكام إلى محمد قل واستولى الروس على بلدة «آتيق ميرزا» بعد موقعة سالت فيها دماؤهم أنهارًا وجرح منهم من لا يحصى عددًا. ثم وثب الروس على الاستحكام الذى أقامه كوجم خان وبلغت الحرب أشدها فجرح الأمير محمد قل فى تلك الأثناء فحملوه إلى الضفة الثانية من نهر «ايرتيش» وعلى أثر ذلك استولى الروس على الاستحكام. فمضى كوجم خان إلى برية «ايشيم» حاملاً معه خزائنه ونفائس أمواله، وجواهره. وفتح الروس هذه البلاد الواحدة تلو الأخرى واستولوا بعد حروب تشيب لهولها الولدان وضحايا تسير بذكرها الركبان على مدينة «ايسكر» التى كانت عاصمة كوجم خان فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٨١م واستولوا على كنوز من الجواهر الغالية والتحف النفيسة والأموال التى تفوق الإحصاء ثم لم يزالوا يحاربون ويقاتلون. وقد لقيهم أهل البلاد بضروب من الدفاع والاستبسال، والثبات فى مواقف النضال والتضحية التى صارت مضرب الأمثال فى الدفاع عن الأوطان والزود عن شرف الأمة وكرامتها، وأخيرًا أسر الأمير محمد قل وحمل إلى موسكو وتولى كوجم خان القيادة العامة

بنفسه وأظهر شجاعة وافرة وبسالة نادرة للنضال عن حياضه واسترداد مجد بلاده حتى الموت، وقد مثل المؤرخ الإنجليزى «هوورث» فى تاريخ كوجم خان دفاع أبطال الأتراك ووقوفهم وقفة الأسود الغاضبة ضد عدوهم المستبد الجبار بموقف ألهنود الحمر ضد مستعمرى بلادهم.

ويدل على صدق وطنية كوجم خان وعزة نفسه جوابه الموجه إلى سفير الروس ردًا على دعوته إلى قبول العيش فى ظل الحماية الروسية حينما رآه يمشى هائمًا على وجهه مع بعض حاشيته وأجناده فى الصحراء بين القتلى. وقد فقد إحدى عينيه وهكذا أجاب: «إنى لا أقبل عيش الأسير ولا موت الذليل. ولا أحزن لفقد أموالى، وإنما الجدير لحزنى وألمى هم أولئك التعساء الذين يعيشون تحت نيران الطغيان الروسى».

واستمرت الحرب بين الروس والأتراك فى هذه المنطقة وحدها أكثر من نصف قرن وتجلى صدق قتيبة بن مسلم الباهلى البطل الإسلامى حيث يقول «إن التركى أحن إلى وطنه من الإبل إلى معاطنها». ولم تنقطع الحرب بوفاة «كوجم خان» سنة ١٦٠٠م بل استمرت نارها مشتعلة على يد ابنه «على خان» الذى قاتل حتى أسر ثم انتقلت القيادة إلى أخيه «ايشيم خان» وأبدى من الشجاعة والبسالة ما يسجله التاريخ بمداد من الفخر.

وهذه الحروب المتوالية من الغارات المتتابعة والشجاعة النادرة والبسالة الوافرة قد أتعبت الروس فبدأوا ينهزمون فى كل المعارك والميادين وطفق الأتراك يطاردونهم فتكسوا على أعقابهم وولوا الأدبار ولكن ذلك النصر فى الشمال الغربى لم يتم لهم فى ذلك الحين. فقد أخذت طائفة «قلوق» تطرق أبواب تركستان من

الشمال الشرقى وتجتاحها، وأقبلوا على البلاد من الشرق كسيل من الدمار، فوقف هذا النصر وذلك النجاح.

مع أن تركستان الشمالية كانت بين نارين يستعر لهيبها غربًا من الحرب الروسية وشرقًا من قبائل قلموق، فقد كان النزاع الداخلى يفتك بالتركستان الجنوبية، وعلى أثر هذا انتقلت حكومة ما وراء النهر من أسرة الأزابكة إلى أسرة الاسترخانيين، وهم وإن لم يتحدوا فيما بينهم لكنهم دفعوا الأعداء عن ديارهم، وبذلوا المهج والأرواح للمحافظة على أوطانهم فلقد قاتلوا وأظهروا شجاعة فائقة أمام غارة القلامقة الذين جاءوا من شرقى آسيا، كما أظهروا بسالة كبرى أمام غارة الروس الذين جاءوا من شرقى أوروبا. وأصبحت تركستان طوال القرن السابع عشر الميلادى مجال حروب وميدان منازعات، إذ كانوا يناضلون عدوين قويين من الشرق والغرب فى وقت واحد، ومع هذا فقد كان النزاع فى تركستان الشرقية قويًا بين الأسرة المالكة والعلماء، فقد انتقل زمام الملك من أيدى آل جغتاى إلى أسرة مخدوم أعظم – زعيم العلماء.

ومما يستوجب الرثاء أن انضم إلى تلك المصائب الفادحة والأخطار الجسام مصيبة جديدة من الجنوب فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أعنى إغارة الفرس بقيادة نادر شاه. وقد اجتاحوا البلاد واقتحموها وبذلك استهدفت تركستان لجميع الأخطار من جميع الجهات، وقد دافع كل من أمراء تركستان بنفسه وجنوده ولم يتحدوا فيما بينهم لتكوين جبهة قوية، إلا أن اجتياح الفرس لم يكن طويل الأمد بل كان سريعًا كالزلزال أو البركان غير أنه ترك أثرًا سيئًا فقد زاد البلاد تمزقًا وتفرقًا وانحلالاً. وانتقل الحكم من أيدى الأمراء إلى أيدى رؤساء العشائر فكثر عدد

الحكومات وقل عدد المحكومين، وانتقل حكم ما وراء النهر من أيدى الاسترخانيين إلى أمراء مانغيت. ولما رأى الروس أن الخطر الجنوبى قد زال بوفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧م وأن القلموق أيضًا قد انهزموا أمام الحرب الصينية التى أشعلتها الصين عليهم سقط فى أيديهم ووقع الرعب فى نفوسهم فبدأوا يحصنون المواقع، ويبنون القلاع فى المواطن التى احتلوها من أراضى تركستان. وبدأ التركستانيون كذلك يعدون العدة ويتجهزون لحرب يجلون بها العدو الغربى الروسى عن ديارهم، ولكن جيراننا من الشرق (أعنى الصينيين) ما كادوا ينتهون من محاربة القلموق ورأوا التركستانيين يقاتلون الروس فى الغرب، وهم ما عدا ذلك غير متحدى الكلمة انتهزوا الفرصة وأغاروا على التركستان الشرقية، ومع أن الحرب تمددت فى الشرق والغرب مرة أخرى ووقف الأتراك بين نارين مشبوبتين فقد ثبتوا فى مواضعهم، ووقفوا ضد العدوين بما عرف عنهم من بسالة وإقدام وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين العدوين معًا.

ولما بسط الإنجليز حكمهم على الهند وحاربوا الأفغان سنة ١٨٣٩م بدأوا يهددون إمارة بلخ وإمارة قوندوز وبقية الإمارات الجنوبية من تركستان. وبهذا نرى أن المصائب السابقة قد زادت شيئًا آخر وهو التهديد الإنجليزى الجديد.

بعد هذا استطاع الروس أن يوجهوا حملتهم فى جد ويسيرون بخطوات سريعة حتى وصلوا إلى الحوض الأوسط لنهر سيحون.

وكانت تركستان إذ ذاك منقسمة إلى ثلاثة أقسام أصلية وهى إمارات «خوقند»، و«بخارى» و«خوارزم» و«خيوة» بخلاف حكومات قبائل التركمان التابعة اسمًا إلى إمارة خيوة.

إمارة خوقند: ابتدأ الروس زحفهم أولاً على إمارة خوقند وأغاروا على «آق مسجد» فاستمرت الحرب بين الطرفين سجالاً إلى أواخر سنة ١٨١٣م. وفى ٢٧ ديسمبر من تلك السنة استولى الجنرال «بيروفسكى» على مدينة آق مسجد ومحا اسمها وسماها باسمه.

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٨م قامت فصائل خوقند تحت قيادة الوالى يعقوب بك (هو ملك تركستان الشرقية فيما بعد) بحملة عنيفة على قوات الروس، وأظهروا شجاعة وافرة تعد من معجزات يعقوب بك ونهبوا ما يقرب من مائة قرية وهزموا الجنود الروسية شر هزيمة، وصد خلف يعقوب بك المسمى «باتير باش» الهجوم الذى قام به الكولونيل الروسى «بلارامبرج» فى يوليو من ذلك العام، وتقدمت حملة العام الثانى التى كان يقودها الجنرال بيروفسكى (الكونت بيروفسكى فيما بعد)، فى حذر وبطء شديد أدى إلى بذل الكثير من الأرواح بلا جدوى وكانت حامية «آق مسجد» تتألف من خمسمائة رجل وثلاثة مدافع وقد قتل الوالى «محمد على» والجزء الأكبر من الحامية فى دفاعهم عن هذا الحصن، ولم يأسر الروس سوى أربعة وسبعين أسيرًا معظمهم من الجرحى.

وصد الروس الجيش المرسل من خوقند بقيادة البكباشى قاسم بك لاستعادة هذا الحصن بعد أن تكبد خسارة جسيمة.

وفى سنة ١٨٦١م استولى الروس على قلعة «ينكى قورغان»، وفى سنة ١٨٦٤م احتلوا مدينة «يسه (المشهورة بمدينة تركستان)» وعلى مدينة «أوليا آتا»، وفى سبتمبر من السنة المذكورة استولى على «جيمكند» واستطاعوا أن يحاصروا مدينة «طاشكند» من أكبر مدن تركستان بعد حروب دامية، ومقاومة عنيفة بقيادة الجنرال «تشرنايف» واستطاع الأتراك أيضًا أن يردوا الروس على

أعقابهم بعد تضحيات عظيمة بقيادة البطل الأمير «عليمقول» القائد العام لقوات إمارة خوقند.

ثم استعد الروس مرة ثانية لمحاصرة «طاشكند» فتقدموا واستولوا على قلعة «نيازبك» التى تبعد عن طاشكند ٣٥ ميلاً تقريبًا من الشمال الشرقى (٢٩ أبريل سنة ١٨٦٥م) وقطعوا مياه الجداول والأنهار التى تسقى أهل المدينة وبدأت عوامل الظمأ وما يتبعه تؤثر فى حياة الناس. ورغم ما بهم من العطش وشدة الحاجة إلى الماء فقد ثبتوا فى مواقفهم، ثم استطاع الروس أن يتقدموا ثمانية أميال ودافع الأتراك عن كل شبر من أرضهم دفاع الأبطال الأقوياء، وقاد الحملة البطل العظيم الأمير «عليمقول» وباشر بنفسه قيادة المدفعية ولكنه مع الأسف استشهد فى سبيل الله والوطن فى ٩ من شهر مايو سنة ١٨٦٥م، ثم استولى الروس على قلعة «زنكى آتا» فدب الحزن واليأس فى قلوب المسلمين بعد استشهاد هذا البطل الصنديد والقائد الأروع. وبذلك تمكنت الروس من محاصرة طاشكند حتى دخلوها، وإن الأتراك رغم هذه الفاجعة الأليمة ورغم ما بهم من العطش والجوع لم يتخاذلوا ولم يسلموا للروس أنفسهم طائعين بل صمدوا صمود الجبال الشماء فى وجوه العواصف لا يتزحزحون ولا يستسلمون بل أداروا المعركة بالحراب والمدى فى طرقات طاشكند وبين أزقتها ودروبها. ولندع القائد الروسى الجنرال «تشرنايف» فاتح طاشكند» يحدثنا بنفسه عما شاهده بعينه فى الموقعة قال «إن المدينة كانت مستعدة بأكياس الرمال (Bariikade) فى كل شوارعها، وكانت المقاومة عنيفة جدًا، وقد مات كثير من الناس وهم يهاجمون جماعات أو منفردين بشوارع المدينة يناضلون بفئوسهم ومعاولهم، لم يستسلموا بل ماتوا

على أسنة الرماح ورأى جنودنا الروس الذين اجتازوا الشوارع مقاومة عنيفة ومقاتلة شديدة ولم نبسط أيدينا على مجتمع أو ناد إلا بعد أن سبحت جنودنا فى بحار من الدماء » هذا هو قول عدونا اللدود الجنرال «تشرنايف»، وهذا يدل على بطولة الأتراك ومقاومتهم للعدو ودفاعهم عن الدين والوطن. وبذلك سقطت طاشكند فى أنياب الروس وتم استيلاؤهم على نصف إمارة خوقند واضطر خدايارخان أميرها أن يدخل فى حماية الروس، ولما ضايقت روسيا إمارة خوقند وقربت ساعة الإجهاز على استقلالها فطن الأمير مظفر الدين خان أمير بخارى إلى عاقبة تأخره عن مساعدة مجاوريه على صد هجمات الأعداء فتحرك لمساعدتهم ومد يد المعونة إليهم وجمع جيشًا جرارًا لمحاربة الروس، ولكن مساعدته أتت بعد فوات الوقت المناسب واضمحلال قوى خوقند ورسوخ قدم الروس فى بلادهم واستعدادهم استعدادًا هائلاً وجمعهم الجيوش المنظمة التى تحمل السلاح من أتقن طراز وتصحبها المدافع المهلكة لذلك لم يصعب عليهم الانتصار على الجيش التركى رغمًا عما أبداه البخاريون الأتراك من المقاومة والاستماتة فى الدفاع لكن لم تجدهم بسالتهم الشخصية شيئًا أمام مقذوفات الروس.

إمارة بخارى

ثم بدأ الروس يتحرشون بإمارة بخارى لإخضاعها، والتهام ما يطيب لهم من الأقاليم فادعوا على أمير بخارى بأن أحد قواده أعلن الحرب على الروسيا وساقوا لمحاربته ثمانية آلاف جندى رغمًا عن إنكار الأمير لما أتاه قائده. وبعد أن أخذوا جنود الأمير على غرة وهزموهم بالقرب من نهر زرفشان دخلوا مدينة سمرقند عنوة ١٤ مايو ١٨٦٨م بعد أن حاصروها ثلاثة أيام. وفى نفس ذلك اليوم استولى الجنرال «جولوفاتشف» على مدينة «كاتتاقورغان» وكان قد أرسل إليها مع خمسة آلاف جندى وثمانى أورط من عساكر القوزاق بثمانية مدافع، وبعد ذلك ترك الجنرال «كاوفمان» المرضى والجرحى من جنوده فى قلعة «سمرقند» مع حامية قليلة وسار بجيشه الجرار لمحاربة الجيش البخارى فلحقه بالقرب من مدينة «صارى بول» وهزمه، ثم قصد مدينة بخارى للاستيلاء عليها لكن وصله فى طريقه قيام سكان سمرقند على من كان بها من الجنود وحصرهم الروس فى القلعة والتضييق عليهم فعاد مسرعًا وفرق جموعهم وفك الحصار عن القلعة بعد ستة أيام كانت الحرب فيها سجالاً، ثم أباح المدينة لجنوده ثلاثة أيام ارتكبوا فى خلالها من القتل والنهب وجميع الفظائع الوحشية ما يسود وجه تاريخهم ويشوه ما ينسبونه لأنفسهم من المدنية.

ولما أيقن أمير بخارى أن لا قبل له بمحاربة الروس وأنه لو استمر

على مكافحتهم فهم لا شك فائزون مهما بذله هو وجنوده من الأموال والأرواح ما دامت الأمم الإسلامية الأخرى لاهية كل واحدة بنفسها؛ فأرسل للجنرال «كاوفمان» يطلب منه الصلح فدارت بينهما المخابرات وأخيرًا اتفقا على أن يدفع الأمير للروسيا غرامة حربية توازى اثنين وسبعين ألف جنيه وأن يتنازل لها عن ولايتى سمرقند وكاتًا قورغان ويبقى مستقلاً بما بقى له وأن يلقب بحليف روسيا ويعين بمعيته مندوب روسى يبذل له النصح فى إدارة شئون بلاده الداخلية وأن لا يخابر أى دولة أخرى إلا بواسطة هذا المندوب التابع إداريًا إلى حاكم تركستان الروسى. وأبرموا معه معاهدة تجارية تقضى بإباحة التجارة لجميع رعايا الروسيا فى إمارة بخارى وبأن يكون لهم رئيس «شهبندر» من بينهم فى كل مدينة أو قرية مهمة وبأن لا تزيد قيمة الجمرك على الواردات إليها من بلاد الروس فى حالة من الأحوال عن ٢,٢٥٪ من قيمة البضائع المراد إدخالها. وبذلك تم ضياع إمارة بخارى ولم يبق لأميرها من السلطة إلا اسمها، ولكن الأمير عبد الملك ولى عهد بخارى لم يقبل هذا الاستسلام وثار على أبيه لقبوله حماية الروس وحارب فى صفوف المجاهدين دفاعًا عن شرف آبائه وأجداده الأتراك.

ثم اتجه الروس إلى تركستان الشرقية وقضوا على إمارة «إيلى» بعد أن رأوا ضروبًا من الدفاع والاستبسال وثباتًا فى مواقف النضال من أميرها السلطان «أبى العلا خداقل خان» وأخيه الأمير شمس الدين سنة ١٨٧١م.

إلغاء إمارة خوقند

وفى تلك الأثناء قام الأتراك بثورة عنيفة على الأمير خدايارخان أمير خوقند لقبوله حماية الروس وهزموا جيوشه وأسروا ولده ناصر الدين ثم دخلوا مدينة «ميرغينان» والزموا مراد بك أخا الأمير بالانضمام إليهم فخرج الأمير بنفسه لمحاربتهم ومعه سفير الروسيا وجنوده من القوزاق. ولما اقترب من الثائرين انضم جيشه إليهم فلجأ إلى الفرار تحت حماية عساكر القوزاق إلى طاشكند فأقام الثوار ولده ناصر الدين أميرًا مكانه ولكن الروس هاجموا بقضهم وقضيضهم وانتصروا عليهم فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٥م، واستولوا بعد ذلك على خوقند نفسها ومدينة «مرغينان». وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٧٥م أمضى الجنرال «كاوفمان» مع الأمير ناصر الدين خان معاهدة تنازل بمقتضاها للروسيا عن جميع البلاد الواقعة على الشاطئ الأيمن لنهر سيحون وبقى ناصر الدين حاكمًا على ما بقى من ولايته على الشاطئ الأيسر، لكن لم يمهله الروس إلا بضعة أشهر ثم عزلوه فى شهر يناير سنة ١٨٧٦م ونفى هو ووالده خدايار خان إلى الروسيا بعيدًا عن كل علاقة مع بلاده العزيزة، ثم ألغوا إمارة خوقند وجعلوها ولاية روسية.

إمارة خيوة

ثم اتجهوا للاستيلاء على إمارة خيوة (خوارزم) ولكن ستمائة فارس من فرسان الأتراك هاجموهم فى حوالى «قزيل صو» وانقضوا عليهم كصاعقة من السماء ولم يستطع الروس أن يفروا وقتل كثير منهم وأسر قائدهم «اسكوبلوف» ولكنه نجا فيما بعد. ثم تقدم الروس مرة أخرى سنة ١٨٧٦م إلى «قزيل أروات» بقيادة قائدهم الجنرال "لاماتكين" وردهم الأتراك حتى قزيل صو إلا أن هذه الهزائم كلها لم تعقد همة الروس بل أرسلوا إليها جيشًا آخر مؤلفًا من ستين أورطة من المشاة و٢٦ من السوارى و٥٦ مدفعًا فقسمها إلى ثلاث فرق سافرت إحداها من مدينة «أورنبورغ» قاصدة خيوة من جهة الشمال الغربى والثانية من بلاد القوقاز، اجتازت بحر الخزر وسارت شرقًا إلى خيوة مخترقة صحارى «قاراقوم» وأتت الثالثة على مدينة «جيزاق» بين سمرقند وطاشكند متجهة إلى الشمال الغربى. ولقد قاست هذه الفرق الثلاث فى سيرها من آلام التعب والعطش، ما كاد يذهب بحياتها وتركت أغلب مهماتها فى الرمال بسبب موت الجمال وباقى دواب الحمل إلا أنها استمرت فى طريقها رغمًا من هذه الصعوبات وما لاقته أيضًا من مناوشات التركستانيين من أبناء قبائل تركمان حتى وصلت إلى أسوار مدينة خيوة نفسها. وفى ٢٨ مايو أطلقت عليها المدافع من كل صوب حتى أذعن أميرها إلى التسليم بعد أن فقد معظم جيوشه

ويئس من الخلاص فأرسل إلى الجنرال «كاوفمان» القائد العام يطلب الصلح. وبعد مداولات تم الصلح بينهما على كيفية تجعل هذه الإمارة أيالة روسية يحكمها أميرها الأصلى بناء على نصائح أو أوامر الحاكم الروسى العام المقيم فى طاشكند.

obeikandl.com

سقوط تركمانستان

وبعد هذه الحروب عزم الروس على إنشاء طريق حديدى بين بحر قزوين، والإمارات المفتتحة حديثًا، وعلى إخضاع البقية الباقية من تركستان فتقدم إلى مقاطعه «تركمنستان» سنة ١٨٧٧م وكان فيها رئيس مستقل لكل قبيلة واتحدوا فيما بينهم، وانتخبوا «نور ويردى خان» رئيسًا لهم، واستقر الأمر على أن يدافعوا عن بلادهم واستحكموا فى «دنكيل تبه» وكانت الجنود الروسية مؤلفة من عشرة فرق من المشاة وأربعة عشر مفرزة من الفرسان وستة عشر من المدفعية ومن عدة قطعات فنية أخرى ومن غيرها. وبدأت الحرب على أشدها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨م، وقتل الأتراك ثلث جنود الروس فى مدة نصف ساعة، وتشتت الروس وتفرق شملهم وذهب ريحهم، ولكن التركستانيين لم يشعروا بهزيمة الروس ولم يستمروا فى هجومهم لإصابة قائدهم «بيردى مراد خان» وهرب الروس فى ظلمة الليل تاركين جريحهم وبعض أشيائهم كحمر مستنفرة فرت من قسورة، وتعقبهم الأتراك حتى النساء والأطفال، وكان المتقدمون من الروس الفارين يضربون إخوانهم المتأخرين عنهم فى الفرار ويرمون النار إليهم ظنًّا منهم أنهم من جنود الأتراك الذين يتبعونهم.

وأحدث هذا النصر المبين روحًا جديدًا فى قلوب الأتراك واشتهر فيما بينهم هذا النصر العزيز وثار بعض البلدان وتحرر من نير

الروس، وبدأوا يغيرون على بلدان محتلة أخرى، ولقد وقع الروس فى هزيمة منكرة رجت بها أرجاء البلاد وكان القضاء على هؤلاء الروسيين محققًا وطردهم من البلاد أمرًا محتومًا لو لم يستطيعوا الاستيلاء على تلك المقاطعات، فعلى هذا استعد الروس مدة ثلاثة سنوات وشمروا وحشدوا المهمات الحربية والزاد والعتاد مدة ستة شهور فى قصبة «بامى» التى تبلغ مسافة ٢٧٠ كيلو مترًا من «قيزيل صو» وأنشأوا عدة قلاع واستحكامات بين قيزيل صو وبامى وجمعوا فيها المهمات الحربية وأنشأوا سكة الحديد من قيزيل صو، وصار الجنرال «غوروديكوف» رئيسًا لأركان الحربية الروسية والتحق الجنرال «قوراباتكير» مارًا بصحراء خيوة مع ٩٠٠ جندى إلى الجنرال «اسكوبلوف» الذى جعل قاعدته العسكرية فى «بامى» واستقر الجنرال «اسكوبلوف» مع سبعة آلاف جندى فى «ايكه ن باطر قلعه» بعد إشغالها. وكان الأتراك مستعدين للحرب وانتخبوا «تيقما سردار» رئيسًا بعد وفاة رئيسهم «نور ويردى خان»، وكان الرئيس الجديد قائدًا باسلاً وقد اشترك فى الحرب حين كان عمره ثلاثة عشر سنة، ونجا بعد أن أُسر مرة فى أيدى الإيرانيين. واستعد البطل الرئيس الجديد واستحكم فى «دنكيل تيه» وكان محاطًا بسور يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار وخنادق عميقة، وكان فيها مدافع من النحاس وثلاث مدافع قديمة غيره، وثلاثين ألف جندى، ولكن لم يكن معه سوى خمسة آلاف بندقية أكثرها قديم العهد. ومع هذا كان الروس يخافون منهم جدًا، ودربوا عساكرهم تدريبًا فنيًا، وأخيرًا بدأوا بمحاصرة «دنكيل تيه» وشتت الأتراك بقيادة محافظة القلعة «كول باتير» فرقة الجنرال «تيرسه ويج» الذى أراد أن يحاصر قلعة صغيرة كانت

خارج «دنكيل تيه» وقتلوا قائدهم الروسى «تيرسه ويج». وكانت الجنود الروسية تحارب بالمدافع والأتراك يهاجمون فى الليل ويشمرون ويحاربون بالسيوف ولا يستعملون البنادق، واشترك الصبيان والنساء فى الحرب وأظهروا شجاعة وافرة لا ينساها التاريخ.

وأغار القائد «تيقما سردار» مع ٤٠٠٠ جندى تركى على الجنود الروسية التى كانت تحت قيادة «قورا باتكين» وغنم الأتراك فى هذه الإغارة علم الفرقة الرابعة وثمانية مدافع، وتقدموا إلى معسكر الجنرال «اسكوبلوف» وغنموا كثيرًا من المهمات الحربية، وكذلك نجحوا فى كل إغاراتهم وغنموا، لكنهم كانوا أكثر تضحية. ولم ينجح الروس فى تدمير القلعة بالمدافع ولم يصلوا إلى نتيجة لأن الأتراك كانوا يرممون ما تهدم من الحصن تحت الأرض، وبهذه الوسيلة أمكنهم فتح ثغرات عديدة فى الحصن (١٢ يناير ١٨٨١)، ودخل الروس إلى الحصن بقيادة قوادهم «قورا باتكين» و«كازيلوف» و«غابداروف» ودافع الأتراك عن الحصن شبرًا بشبر دفاع الأبطال، ولكنهم اضطروا أخيرًا إلى الانسحاب مع قوادهم «تيقما سردار» و«مخدوم على خان» و«مراد خان» إلى حوضة «تيجان» وفى مارس من تلك السنة استولى الروس على مدينة «عشق آباد» وجعلوها قاعدة حربية، وفى فبراير سنة ١٨٨٤م استولوا على مدينة مرو بقيادة الجنرال «كوماروف» وفى شهر أبريل من تلك السنة احتلوا مدينة سرخس وبذلك تم للروس فتح تركستان بعد حروب متطاولة دامت ثلاثة قرون وأكثر ١٥٨١ – ١٨٨٤م.

تركستان الشرقية

وأما التركستان الشرقية فكانت أحد أقسام الإمبراطورية التيمورية الكبرى، ولما تفرقت أجزاء الإمبراطورية استقل أمراء «جغتاى» بالبلاد وكانت عاصمتهم «كاشغر» أو «آقصو» فى بعض الأحيان. وفى عهد أمراء جغتاى تقدمت العلوم والفنون والصناعات وسادت الروح الدينية كما ازداد نفوذ العلماء وبدأوا يتدخلون فى شئون الدولة وسياستها، ومنذ ذلك الحين بدأ نفوذ الأمراء يتضاءل حتى ضعفت سلطة الخواقين وتحللت قواهم.

وفى العهد الأخير ظهر على مسرح السياسة اسم «مخدوم أعظم» رئيس الفقهاء وكبير العلماء فى تركستان الشرقية وكثر أتباعه، حتى كاد نفوذه يطغى على نفوذ الخاقان فى ميدان السياسة والرياسة، وكان له ابنان: خوجة إسحاق ولى وخوجة محمد أمين، واشتهر لقب الأخير بإمام كلان (الإمام الكبير)، فوقع بينهما بعد أبيهما نزاع سياسى حول وراثة المكانة التى كانت لأبيهما فاستجد كل منهما بمن انضم إليه من العشائر والأتباع، ونشأ عن ذلك قيام حزبين، فسمى حزب إسحاق «قارا طاغلق» كما أطلق على الحزب الآخر اسم «آق طاغلق» وامتد النزاع بينهما إلى أن قدم آبباق خوجم (هداية الله خان) من سمرقند، وهو من أحفاد مخدوم أعظم. وتولى بنفسه زعامة حزب «آق طاغلق» ولعب دورًا سياسيًّا هامًّا فاضطر الملك إسماعيل خان إلى إقصائه من البلاد (٩٠٧هـ)

واستنجد آباق خوجم بنفوذ «دالاى لاما» الخامس حاكم التبت الكهنوتى، فكتب بدوره إلى «غولدان قونتاجى» رئيس القلامقة فى «إيلى» يوصيه بمساعدته فقبل التوصية، وأرسل جيشًا تحت قيادة آباق خوجم، فنازل به الملك إسماعيل خان وتغلب عليه وقامت فى تركستان حكومة العلماء «خوجوات» سنة ١٦٨٧م.

وعلى أثر قيامها اندلعت نار الحروب الداخلية بين الحزبين من جهة وبينهما وبين القلامقة من جهة أخرى، وأتاحت هذه الحروب والانقسامات الأهلية فرصة سانحة للصينيين، وإذ ذاك أرسلت الحكومة الصينية جيشًا كبيرًا فى أواسط القرن الثامن عشر الميلادى لغزو تركستان، وقد قاومهم الأتراك مقاومة الأبطال إلا أن الجيوش الصينية تغلبت بوفرة عددها. وفى سنة ١٧٥٧م تم احتلال الجزء الشمالى من تركستان الشرقية بقيادة قائدهم «جى – زاو – خوى»، وقضوا على حياة مليون من السكان، ثم بدأوا زحفهم إلى الجنوب. أما الأتراك فقد بذلوا كل جهد فى المقاومة والاستبسال والدفاع عن كل شبر من أرض بلادهم غير أن الصينيين كان عددهم أكبر من أن يحصى، فتقدموا على جثث القتلى إلى أن بلغوا «كوجار» وحصروا المدينة فوثب عليهم المسلمون وثبة الأسود، وهجموا عليهم هجوم السيل من كل مكان حتى اضطروهم إلى ترك الحصار فولوا الأدبار. ولما وصل نبأ هزيمتهم إلى القيادة الصينية العامة «إيلى» أرسلت هذه القيادة إمدادًا وافرًا لمعونتهم وعادوا إلى مهاجمة كوجار مرة أخرى، فسار برهان الدين خان ملك تركستان وشقيقه الأمير جهان خان إليهم فى عشرة آلاف من الجنود لإنقاذ المدينة وأهلها. غير أن الصينيين كانوا قد سبقوهم إلى فتحها، وأعلن قائد الحملة الصينية القتل العام،

وذهبت فى ذلك القتل حياة عشرة آلاف من الأبرياء بصورة وحشية يندى لها جبين التاريخ.

أما جلالة الملك برهان الدين خان فقد انسحب إلى «ياركند» لإعداد الجيوش وتنظيمها لحرب أخرى كما أمضى الأمير جهان خان إلى «خوتن» لحشد الأجناد ومساعدة أخيه الملك للدفاع عن الوطن. وعاد الصينيون للزحف وتقدموا إلى «ياركند» فاشتبكوا فى معركة دامية. وردهم الملك مدحورين. وحوصر قائدهم «جى – زاو – خوى» فلم ينقذه سوى قوة صينية جديدة أرسلت لإمداده، ثم عادت القوات الصينية ورابطت فى آقصو، واحتشدت فيها لتنظيم صفوفها، ولم شعثها، وجمعت كثيرًا من الذخائر والأموال والخيول والجمال استعدادًا للقتال، وفى تلك الأثناء أقبلت عليهم الإمدادات، وتمكنوا بعد ازدياد قواتهم أن يبدأوا الهجوم على المسلمين من عدة جهات: فقامت حملة بقيادة «جى – زاو – خوى» على كاشغر وأخرى بقيادة «فو – تى» على ياركند واضطر الملك بعد استعار الحروب، وإزهاق الأرواح واستشهاد الأبطال للانسحاب إلى «خوتن» حيث كان أخوه الأمير جهان خان ينظم الكتائب، فتبعته الجيوش الصينية والتقت بعساكر جهان خان ودارت الحرب على أشدها، وناضل المسلمون نضال من لا يخاف الموت غير أن الصينيين تغلبوا أخيرًا مما اضطر الملك برهان الدين خان إلى مغادرة البلاد فى صحبة أخيه جهان خان مع بعض الأسرة المالكة إلى بدخشان فتبعتهم وحدات صينية وألحقت بهم تضحيات جسيمة فى عدة أمكنة حتى أسر الملك وشقيقه الأمير جهان خان بعد نضال عنيف قتل فيه جميع أفراد الأسرة المالكة، وكل من كان معها من الحاشية والجند، وبينهم أربعة من أكابر الأمراء. ولم يفلت من

أيدى الصينيين سوى الأمير خوجه صالح «ساريمساق خوجه» بن الملك. فقد أنقذ حياته وحياة الأسرة الملكية فى شخصه بهذا الفرار المؤقت. أما الملك وشقيقه فقد أعدم كلاهما فى كاشغر بأمر القائد الصينى العام.

وبعث الصينيون برأس الملك فى قفص من حديد إلى إمبراطور الصين فى «بكين» وأمر الإمبراطور بعرضها على الشعب الصينى إعلانًا لانتصاره على المسلمين فى تركستان. وأما رأس شقيقه الأمير جهان خان فإن المسلمين استطاعوا أن ينتزعوها من أيدى الأعداء وهم فى الطريق بها إلى الصين.

الأميرة «نور على نور»

وكان للأمير جهان خان زوجة بارعة الحسن يضوع منها العطر حيث سارت، وأنى أقامت دون أن تمس طيبًا من أى نوع – كما قيل عنها ذلك – حتى أطلق عليها الصينيون اسم «شانغ – بى» الملكة المعطرة. ولما سمع بها إمبراطور الصين أثناء الحروب أمر قائده «جى – زاو – خوى» أن يأسرها ويرسلها فى حراسة من جيشه مع التكريم والاحترام ففعل ذلك أثناء فرار الملك وأخيه إلى «بدخشان» فلما وصلت إلى « بكين » وجدت فى قصره كل حفاوة وترحيب ولكنها عند رؤية الملك أظهرت غضبها وثورتها وتحول انشراحها وهناءتها إلى ثورة لو استحالت نارًا مادية لأحرقت القصر وما حوله، وكذلك كانت، نور على نور، هادئة ساكنة لا تفارقها البشاشة والابتسام ما لم تر الإمبراطور فإنها عند ذلك تثور ثائرتها. وحاولت مرة أن تثب إلى صدره بالخنجر فحالت الوصيفات دون تنفيذ مأربها. فقالت لهن لقد اعتدى على بلادى، وتشتت

أسرتى، وقد استسلمت للموت وكرهت الحياة منذ أمد بعيد. ولكن لم أبذل نفسى إلاّ بثمن غال ولن أرضى بغير القصاص والانتقام، ولما قبضن الخنجر من يدها قالت: إن هذا العمل لا يجدى شيئًا ولا يقدم ولا يؤخر ولا يحول دون الغاية، فإن ذهب خنجر واحد ففى قلبى خناجر كثيرة أخرى فكيف يمكن انتزاعها منى.

كان الإمبراطور يطاول ويحاول وأكثر فى مجاملتها فبنى باسمها مسجدًا هو من أفخم مساجد الصين حتى الآن. وابتنى مدارس باسمها، وجامل مسلمى الصين من أجلها. وفى يوم من الأيام خرج الإمبراطور لموكب العيد فانتزهت الإمبراطورة هذه الفرصة، واستدعتها إلى القصر. وأمرت بإغلاق الأبواب جميعًا، ومنع كل طارق من الدخول ولو كان الإمبراطور نفسه، ثم قالت لها: ما الذى منعك من قبول زواج الملك، فأجابت قائلة إنى صبرت على الإهانة والأسر، وقطعت عشرة آلاف من الأميال ولم يقو عزيمتى على الصبر سوى الأمل فى فرصة الانتقام. ولم تسنح الفرصة لإنجاز ما اعتزمت عليه. وفى تلك اللحظة قتلتها الإمبراطورة. ولما حضر الإمبراطور من موكبه ورأى القصر مغلقًا استولى عليه الحزن والكآبة وتزايد ألمه عندما رأى الملكة التركية مضرجة بدمها، فأمر بدفنها على تقاليد دفن الملكات. وبهذا تكون «نور على نور» قد قدمت أعظم مثل فى هذه البطولة التركية النادرة، والوطنية الصادقة.

ثورة أوشتورفان

وقد ظهر بعد الاحتلال الصينى بخمس سنوات أن الإيمان الوطنى العميق كان فى حالة سكون، وترقب للفرصة. وأن الأمة لم ترضخ لهذا الاحتلال ولن تذعن لهذا الطغيان، فشبت نار الثورة فى أوشتورفان سنة ١٧٦٥م وكان زعيم الثورة «رحمة الله آخون» المجاهد الوطنى العظيم.

فارسل القائد الصينى جيشًا لقمع الثورة فأجابهم المسلمون بحرب أبادتهم على آخرهم. وكان نجاحًا باهرًا للمسلمين، أحدث الرعب فى قلوب الصينيين، وزلزلت الأرض من تحتهم، وخافوا عاقبة الأمر. فأرسل القائد جنودًا لا عدد لها من الشرق والغرب وحاصروا المدينة. ولكن المسلمين على عادتهم ثبتوا فى الدفاع وناضلوا عن المدينة بما وسعهم من عزم ويقين. ولما استحال إرسال الإمداد إلى المسلمين من أى جهة، واستمرت الحرب ثلاثة أشهر متتابعة. كان طبيعيًا أن تنقلب هذه الألوف المؤلفة بذخائرها وأسلحتها من الصينيين على المجاهدين من المسلمين فدخلوا المدينة. ولأول مرة يسمع تاريخ الإنسانية بأن جيشًا فاتحًا يحكم على أهالى مدينة كاملة بالقتل العام، فيزهق أرواح من فيها من رجال ونساء وشباب وشيوخ وأطفال ويترك بيوتها قبورًا لسكانها. كذلك فعل هؤلاء وأمروا بإجلاء الأهلين من القرى المجاورة إلى وادى نهر إيل.

الأمير خوجه صالح:

أما الأمير خوجه صالح بن الملك برهان الدين فإنه بعد فراره من الموت فى جبال «بدخشان» أخذ منذ اليوم الأول يطوف بالقبائل والعشائر على الحدود، ويجمع الكتائب من الشعب الثائر لوطنه المهيض الجناح حتى التف حوله الناس من كل حدب وصوب، وأصبح على قدم الاستعداد لحرب كان يمكن أن تكون ناجحة مظفرة؛ وفى نفس الوقت قامت ثورة أخرى بقيام كمال الدين خوجه رئيس حزب قارا طاغلق وهو من أحفاد مخدوم أعظم أيضًا ولكن هذه الثورة أخمدت فى مهدها، كما أن الأجل المحتوم أدرك خوجه صالح قبل أن يسير إلى أعدائه، وقبل أن يحقق ما كان يطمح إليه من دحر الجيوش الصينية وإجلائها عن تركستان.

جلوس جهانكير خان على عرش تركستان:

ولقد قام من بعده ابنه البطل القائد جهانكير خان تورم ١٨٢٨م وقاد جيوش أبيه والتقى بالصينيين فى عدة معارك حتى فل شوكتهم، وشتت جيوشهم وتبوأ عرش أبيه وأجداده من جديد وأسلمت إليه البلاد قيادها، وتقلد زمام الحكم، إلا أن الصينيين لم تخب نارهم، ولم تسكن أحقادهم، فعادوا لإثارة الحروب مرة أخرى بعد سنتين من حكمه، وفى إحدى المعارك عمد الصينيون إلى الحيلة والاغتيال. فتربصوا بالملك القائد وترصدوا له وهو فى عزلة من حرسه ورجاله، ووثبوا عليه وهو نائم، فأيقظوه أسيرًا، وحملوه إلى الصين حيًا مكبلاً بالحديد فى قفص محكم كسر محبوس، وهناك قطعوا لسانه وأحضروه إلى الإمبراطور فأمر بذبحه على تلك الصورة الدامية الأليمة التى قطعوا فيها رأسه بعد

أن قطعوا لسانه، فكان الملك الذبيح والقائد الشهيد، ولقد ترك مقتله فى نفوس أمته نارًا تجيش بالألم، وتبعث الإيمان واليقظة من جديد، وتسطر سجل الحرية بدماء هذا الشهيد.

جهاد يوسف خان تورم:

وبعد انقضاء عامين على استشهاد هذا الملك الباسل كانت البلاد فى أشائهما على باب ثورة تنتظر من يقودها، وإذ ذاك أقبل شقيق الملك الذبيح «يوسف خان تورم» يعاونه القائد العظيم «حق قولى يكباشى» من جهة فرغانه وانضم إليه جيش كبير من البلاد حتى وصلوا إلى كاشغر ونجحوا أول الأمر واستردوا بعض البلدان، ولكن الإمدادات التى وصلت إلى الجيش الصينى أوقفت هذه الانتصارات. وتفرقت جيوش الوطنيين، وأمعن الصينيون بعد ذلك تخريبًا وقتلاً بدون محاكمة وحجتهم فى ذلك أنهم يريدون إبادة أنصار الملك.

ورغم هذه المجازر الحمراء لم يذهب من القلوب إيمانها، ولم تنطفئ نار حميتها الوطنية، فلم يمض قليل على تلك الحوادث حتى أقبل إلى البلاد الأمير محمد أمين خان بن الأمير يوسف خان فى سبعة من كبار الأمراء، ووجهوا ضربة قاصمة إلى الصينيين وفلوا من شوكتهم، وأنزلوا الرعب فى قلوبهم، وتبوأ الأمير عرش تركستان من جديد ١٨٤٦م وأخذ يطارد الصينيين فى كل مكان وهم ينهزمون فى طريقه، حتى حاصرهم فى «ينكيحصار» ومضى على ذلك أيام، ثم قامت من جديد حركات الجيوش الصينية وتجمعت الإمدادات من أورمجى بقيادة «خاى دؤى – جان – جون» ومن قبائل قالماق المغولية، ومن قاراشهر أيضًا والتقوا جميعًا فى

«قاراشهر» وساروا متوجهين لإنقاذ ينكيحصار، فوجه إليهم الملك حملة قوية لصدهم فى آقصو ولما تغلب الصينيون سار بنفسه مع الجيش، والتقت الجموع من الفريقين فى «كوك رباط» وبعد قتال عنيف تغلبت الجيوش الصينية الكثيرة العدد، وسار جيش الملك إلى كاشغر، فتبعهم الصينيون بمن انضم إليهم من المحصورين فى ينيكيحصار، واضطر الملك بعد ذلك إلى النجاة بنفسه، واتجه إلى فرغانة. أما الجيوش الصينية الزاحفة فقد دخلت كاشغر وصنعت بالمدينة العزلاء من الحوادث المروعة ما لا يتسع لوصفه بيان، ومدينة عزلاء مجردة من كل سلاح تقع فى أيدى مئات الألوف من المدججين بالحراب والمدافع، مدينة كهذه لا يحتاج المرء فى وصف حالتها إلى إطالة فى وصف ما يمكن أن ينزل بها من الويلات على أيدى هؤلاء، وقد اضطر الأهلون إلى مغادرة المدينة وخرجوا من ديارهم وأموالهم فرارًا بأنفسهم وصاروا فى طريق فرغانة. وكان ذلك فى وقت الشتاء فاصطدموا بموسم الثلوج، وفى بعض السهول الجبلية هبطت تلك السيول الثلجية فغطت بين الوديان مائة ألف نفس قضوا نحبهم شهداء الظلم الفادح، وأسلموا أرواحهم أعزة أحرارًا مؤثرين الموت الشريف على حياة الذل والاستعباد.

إلا أن محمد أمين خان لم يمض إلى فرغانة ليطمئن بها، بل ليجمع الوسائل لتجديد الغزو وإعلان الجهاد واسترداد البلاد، فعاد إلى كاشغر مرة ثانية.

وانضم إليه من بقى فيها فافتتحها كما افتتح ما حولها من المدن بعد صراع عنيف وتحول إلى ينكيحصار وحاصر الجيش الصينى بها مدة طويلة حتى وصلهم الإمداد فى خمسين ألفًا من الصين ووقفت الحرب وتكررت المأساة وعاد أمين خان إلى فرغانة أخيرًا.

جهاد ولى خان تورم:

وبعد سنتين قامت الثورة بقيادة الأمير ولى خان بن عم الملك محمد أمين خان فأعلن الحرب على الصينيين ولكنه انهزم أول الأمر حتى عاد فى آخر السنة نفسها فتقدم إلى الجيوش الصينية ووجه إليها ضربات قوية وانتصر فى جميع المواقع وأسلمت إليه البلاد زمامها. وجلس على عرشها ملكًا يحوطه الجميع بالحب والولاء. فكان الصينيون يحسبون له ألف حساب، ويسمونه شاهين النقمة، وكانت ولايته على العرش سنة ١٢٧٣هـ ١٨٥٧م وقد حفظ لهذا التاريخ كلمة تجمع حروفها بالجمل المعروف فتكون أعدادها تاريخ هذه السنة وهى كلمة «مرغ بلا» أى (طير البلاد)، ولكن الكرة الصينية عادت فألحق الملك بفرغانة بعد حروب شديدة ومقاومة عنيفة. بدأ الصينيون يظهرون غضبهم بأنواع من الإرهاب وسفك الدماء كعادتهم وإجبار الناس على اعتناق البوذية وتعذيبهم بإحراقهم فى النار، وإغراقهم فى الأنهار.

انتصار المسلمين على الصين

وفى سنة ١٢٧٧هـ وقعت الحرب المشهورة بين الصين وبين فرنسا وانجلترا فاحتلت هاتان الدولتان بكين وهزمتا الجيوش الصينية هزيمة منكرة. فاستفاد التركستانيون من هزيمة الصين وأعلنوا استقلالهم مرة أخرى وشكلوا عدة إمارات وطنية فى كوجار وغولجا (إيلى) وكاشغر وخوتن وطردوا الصينيين بعد حروب عنيفة.

إمارة كوجار وجهاد الغازى راشد الدين خان خوجم:

إن المسلمين فى تركستان لما علموا بانهزام الصين أمام فرنسا وانكلترا انتهزوا الفرصة وأعلن راشد الدين خان خوجم من أحفاد مخدوم أعظم ثورة فى كوجار، ونادى المسلمون للجهاد فى سبيل الله والوطن وحرروا مدينة كوجار من أيدى الصين ونودى به ملكًا على البلاد ولقب بالسيد الغازى راشد الدين خان خوجم كما انتخب شقيقه إسحاق خوجم قائدًا عامًا لجيش تركستان. فلما تم فتح كوجار توجه إلى بوكور. فانضم إليه أهلها وأنقذوها من الصينيين كما انضم إليه أهل كورلا وساروا جميعًا إلى قاراشهر وحاصروها، وكان الوالى الصينى قد أرسل إمدادًا من الجيوش إلى الصينيين فى قاراشهر ووصلت إلى أوشاق تال التى تبعد عن قاراشهر ببضعة أميال فبادروا إلى قمعها قبل أن تصل إلى قاراشهر ورفعوا عنها الحصار، وأخفى بعض جنوده فوق الجبلين على جانبى الطريق ووقف هو مع بقية جنوده أمام الممر وكان الصينيون غافلين

عن هذه الخطة المحكمة فلما وصلوا إلى الممر فوجئوا بهجوم من الجهات الأربع، وكان الأتراك فوق الجبل يقذفون بالأحجار بدلاً من طلقات النار واستمرت الحرب طوال النهار، وأبيد الصينيون عن بكرة أبيهم، وكان الفوز للمسلمين عظيمًا، والانتصار باهرًا والفتح مبينًا. فلما علم الصينيون المحاصرون فى قاراشهر أن المسلمين رفعوا الحصار وساروا لصد الجيوش القادمة إلى «أوشاق تال» أسرعوا بدورهم إلى تركستانيين ليضربوهم من خلفهم ولكنهم وصلوا بعد انهزام الصينيين ورأوا الميدان قد ملئ بالجثث من قتلاهم فوقع الرعب فى قلوبهم ووثب المسلمون عليهم بنشوة الانتصار كالأسود الضارية، وهزموهم هزيمة منكرة، وبهذا سقطت قاراشهر فى أيدى الأتراك، ثم اتجه المسلمون إلى طورفان وحاصروها، وعلم الصينيون أن النجاة أصبحت ضربًا من المحال فخافوا أن يسقطوا فى أيدى المسلمين فاجتمعوا فوق مخازن البارود وأشعلوا النار فانفجرت القذائف وارتفعت بهم السهم إلى الغمام، وسقطت بهم إلى حضيض الثرى.

فلما رأى الصينيون فى «توخسون» و«داوانجين» و«لوكجون» نجاح المسلمين وانتصارهم فى كل المواقع والميادين انتحروا جميعًا بالأفيون وتحررت المدن المجاورة كلها من الظلم والطغيان، واعترفت بحكومة السيد الغازى راشد الدين خان.

ثم عاد القائد البطل إسحاق خوجم بهذه الانتصارات الباهرة إلى كوجار ونال الشىء الكثير من العطف والتقدير من الملك الغازى راشد الدين خان واستقبله الشعب استقبال البطل المجاهد والمنقذ الأعظم والقائد الأوحد. ثم توجه الجيش بقيادته صوب الغرب لإنقاذ بقية البلاد من نير الاستعباد، فوصل إلى قصبة «باى» فاستسلم الصينيون بدون مقاومة تذكر، ثم تقدم إلى «آقصو» واشتبك

الجيش التركستانى بالجيش الصينى فى «قارايولغون» فالحق بهم الأتراك الهزائم بعد معارك دامية وتقهقر الصينيون إلى «آقصو» فسار المسلمون أثرهم حتى حاصروهم فى المدينة فلما رأى الصينيون أن لا مفر لهم انتحروا جميعًا بإشعال البارود كما صنعوا فى طورفان فدخل الجيش التركى المظفر المدينة واستقبله الشعب بحماسة بالغة ثم توجه إلى «أوشتورفان» فاستسلم الصينيون بدون أدنى مقاومة، ثم اتجه إلى «ياركند»، وكان الأتراك فيها قد قاموا بثورة عامة قبل وصول القائد إليها، ولكنهم كانوا على وشك الانهزام لكثرة قوات الأعداء، ووفرة جنودهم، ومناعة حصن المدينة ووصل إسحاق خوجم مع جنوده، وانقض على الصينيين فانتحروا بإشعال البارود فى أنفسهم، وكان عبدالرحمن خان خوجم من أبرع القواد فى فتح ياركند.

إمارة قولجا (غولجا):

أما قولجا فهى مدينة كبيرة فى شمال تيانشان فإن أهلها عندما سمعوا بنجاح إخوانهم فى الجنوب انبعثت فى قلوبهم روح اليقظة ونيران الحمية، وحملوا علم الثورة تحت قيادة زعيمهم المبجل «أبو العلا خداقل خان» فجاهدوا وجالدوا حتى استولوا على ولاية جونغاريا كلها بعضها إثر بعض. وانضمت قبائل «صولون» و«جاقار» من المغول إلى المسلمين، وحاربوا الصينيين فى صفوفهم، واشتركت فرقة من السيدات المسلمات فى القتال، وأظهرت شجاعة بارزة وبسالة نادرة، ثم انتخب «أبو العلا خداقل خان» أميرًا على جونغاريا كلها، وكان اسحق خوجم قد حضر بنفسه لنجدة أهل «إيلى» فكان لمقدمه أثر بارز فى إحراز الفتح والانتصار.

إمارة ختن:

أما ختن فقد قامت بثورة أيضًا بقيادة إحسان خان بن المفتى الحاج حبيب الله وفاز المسلمون فوزًا عظيمًا حتى حاصروا الصينيين فى القلعة واستمرت المحاصرة شهرين ولما رأى الصينيون أن لا نجاة لهم انتحر بعضهم وقتل البعض واستسلم البعض الآخر ثم استولى إحسان خان على مدن «قاراقاش» و«يورونقاش» و«جبرا» و«كيريا» و«زاوا» و«بيالما» وغيرها من المدن المجاورة لها، ثم انعقد مؤتمر عام لانتخاب ملك على ختن فانتخب إحسان خان ملكًا بإجماع الآراء ولكنه تنازل لأبيه حبيب الله خان مفتى ختن، فبايع المسلمون لما امتاز به من علم وتقوى وصلاحية وعدل.

إمارة كاشغر:

وأما كاشغر فلم تقم بثورة بعد، ولكن الصينيين أرادوا أن ينتقموا من أهل كاشغر لثورة إخوانهم فى المقاطعات الأخرى، وخرجوا فى ليلة من مدينة ينكى شهر (كاشغر الجديدة) التى يقيم فيها الحاكم الصينى مع جنوده إلى كهنه شهر (كاشغر القديمة) مدينة المسلمين وأعلنوا قتلاً عامًا فى البلدة للإرهاب، وبدأوا يستأصلون المسلمين وقتل آلاف مؤلفة من النساء والأطفال، ولكن استطاع أحد المسلمين الفرار من المدينة بإلقاء نفسه من القلعة إلى خارج المدينة، وأخبر صديق بك رئيس قبائل قيزغير التركية الرحالة فى الجبال بأسلوب مؤثر، فهاجت حميته وجمع شبانًا من القيزغيز وهاجموا الصينيين وحاصروا كاشغر القديمة، وصعدوا إلى القلعة ودخلوا المدينة، وقتلوا الصينيين وانتقموا منهم شر انتقام وانتخب هو ملكًا على كاشغر.

وبذلك تأسست فى تركستان الشرقية أربع إمارات وطنية فى

إيلى وكوجار وخوتن وكاشغر، وأما «أورومجى» فكانت فى أيدى التونكانيين (مسلمى الصين) كما كان بعض المدن لا يزال فى أيدى الصينيين غير المسلمين.

ارتقاء برزك خان تورم على عرش تركستان الشرقية

ولئن كان هذا النصر والنجاح مبعث الفرح والسرور فقد كان الانقسام وكثرة الدويلات وبقاء بعض المدن فى أيدى الصينيين مما يلقى الحزن فى قلوب بعض الزعماء. ولم يكن من الممكن توحيد دولتهم إلا بأن يتبوأ العرش أحد أحفاد ملوكهم السابقين، وورثة الملك الشرعيين، وكان صاحب السمو الأمير برزك خان تورم بن الملك الذبيح جهانكيرخان نزيلاً عند الأمير عليمقول فى فرغانة، فاتفق الزعماء مع صديق بك منقذ كاشغر على أن يدعوه ويجلسوه على عرش أبيه، وأرسل صديق بك سفيرًا إلى عليمقول زعيم فرغانة ورئيس وزرائها يطلب إرسال ملكهم الذى كان مقيمًا فى رعايته فأجابهم إلى طلبهم وأرسل الملك إلى بلاده واستقبله الشعب باحتفال مهيب وأجلسه على عرش الدولة بالمراسيم الملكية والتقاليد القومية سنة ١٨٦٣م وأظهر شاعر بهجته وسروره فى قصيدة طويلة باللغة التركية مطلعها:

انجاندن تورم كلدى　　متا امدى اوينايمز

ميك يبلر حاكم بولسا　　ديداريفه تويمايمز

ترجمة

سلطاننا قد جاء من فرغانة

فاليوم نمرح فى الحبور ونرتع

لو أنه حكم الدهور جميعها

فقلوبنا من حكمه لا تشبع

وكان معه قائد محنك وزعيم مخلص وسياسى بارع اسمه يعقوب بك وكان فى رتبة ميرالاى (باتير باشى) وكان قد اشترك فى عدة حروب ضد روسيا وأظهر بسالة نادرة فكانت حياته كلها سلسلة جهاد لإنقاذ البلاد، ولغرس الوطنية فى نفوس أبناء الوطن فقلده الملك برزك خان قيادة الجيش العامة، كما قلد صديق بك رياسة الوزارة، فاستمر يعقوب بك فى جهاده، وشتت القوات الصينية، وأنقذ ينكى شهر وينكيحصار ومبارالبشى وغيرها من أيدى الصينيين بحروب تشيب لهولها الولدان.

ارتقاء يعقوب خان على العرش

ولما رأى جلالة الملك برزك خان بسالة يعقوب خان النادرة وعبقريته الفذة قلده رياسة الدولة كما أطلق عليه الأمير مظفر الدين خان أمير بخارى لقب «آتالق غازى بدولت» ثم تنازل له صاحب الجلالة برزك خان تورم عن الملك وسافر بنفسه لأداء فريضة الحج، وصار يعقوب بك من ذلك اليوم أتالق غازى يعقوب خان.

ثم بدأ يعقوب خان يدعو زعماء البلاد إلى العمل لمجد وطنهم ورفعة شأن بلادهم ويوقظ فيهم روح الحمية الوطنية والشعور بالعزة القومية ويحث الأمة على نشر التعليم القومى لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد، ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد وكان من نتائج دعوته وجهاده أن اتحد أمراء تركستان الشرقية تحت رايته طوعًا أو كرهًا، وكان بقايا التونكانيين والوثنيين من الصين لا تزال مرابطة فى أورومجي، ثم انبعثت فيهم غريزة العدوان فهاجموا المدن على التوالى وكانوا

كلما غزوا مدينة سبوا أطفالها حتى وصل عدوانهم إلى مدينة كورلا وفر حاكمها إلى بوكور وكتب إلى إسحاق خوجم حاكم كوجار واستنجد هو بدوره بحكيم خان تورم القائم بالأمر فى آقصو ولكن التونكانيين لم يمهلوهم فأغاروا على كوجار وافتتحوها وبلغ الخبر إلى جلالة الملك يعقوب خان وهو فى كاشغر، فهب من فوره فى غضبة الأسد الهصور يقود الجيش الجرار حتى وصل إلى الجيوش الصينية فى «سايرام» وقاتلهم ففروا إلى كوجار فما زال بهم هذا الملك المظفر حتى أجلاهم وفتح المدينة وما كاد يتوسط شوارعها حتى طافت به صيحات الآباء وعويل الأمهات «أطفالنا وأبناؤنا يا جلالة الملك» فأثرت هذه الأنات الموجعة فى قلبه الطاهر وأقسم لن يدع فى أرض تركستان صينيًّا واحدًا ينعم بالحياة فيها بين أرضها وسمائها ونهض من فوره يطارد الصينيين ما بين تونكانيين ووشيين حتى دفعهم إلى بوكور ثم إلى كورلا فقاراشهر وتوخسون حتى طورفان وهنالك اعتصموا بقلعتها المنيعة وأقاموا فى نطاق من الحصار ستة أشهر وحاولوا أن يأخذوا جيش الملك على غرة فهاجموا جنود الملك وهم آمنون ولكن جلالته كان يقظًا حازمًا فتقهقرت الجيوش الوطنية تبعًا لخطة الانسحاب الحربية وخيل للصينيين أنهم قد ظفروا بالغنيمة وما لبثوا أن وجدوا سيوف التركستانيين وحرابهم تكر عليهم فتردهم على الأعقاب ولم يدع الملك لهم فرصة التحصن بالقلعة مرة أخرى فقد أسرع إليهم بحملة أخذت عليهم مسالك النجاة وأعمل فيهم الإبادة والإفناء وما زال بجيشه الظافر يتبع مواقع الجيوش الصينية فى كل مدينة حلوا بها حتى أبادهم إلى أن كانت الموقعة الأخيرة فى أورومجى حيث قتل من الصينيين اثنا عشر ألفًا واستشهد من الترك ثمانمائة لا غير.

وبذلك تم ليعقوب خان النصر النهائى وطهر تركستان بمدنها ومعاقلها وشواطئها وجبالها من الصينيين ولم يبق فيها جندى واحد أجنبى واسترد الأطفال وأعادهم إلى آبائهم آمنين.

وكان الشعب التركستانى يقدر يعقوب خان حق قدره ويحبه من صميم قلبه، وكانوا يعلمون أنه هو الزعيم الذى يرشدهم إلى الحياة السعيدة، ويخرجهم من الذلة إلى المجد، ومن الظلمات إلى النور، ويقودهم فى الدفاع عن كرامة الوطن وشرف الأمة ويغسل فبائح التاريخ بالدم الحار ويحطم جمجمة العدو بالسيف الحاد.

ولما رفرف علم السكون والهدوء فى أرجاء تركستان الشرقية بدأ يعقوب خان يعمل على توثيق عرى السياسات الخارجية بينه وبين الأمم عامة والشعوب الإسلامية خاصة فأرسل سفراءه إلى تركيا العثمانية لمبايعة الخليفة السلطان عبد العزيز خان وطلب من دار الخلافة ضباطًا أتراكًا ليدربوا الجيش التركستانى فأرسل الخليفة إليه عددًا من الضباط والأسلحة عن طريق الهند واعترفت حكومة تركيا بحكومة تركستان الشرقية. وكان الروس قد أمضوا مع الصين معاهدة تنص على تقسيم التركستان فيما بينهم، واعترفوا بسيادة الصين فى تركستان الشرقية، كما أن الصينيين أيضًا كانوا قد اعترفوا بسيادتهم فى تركستان الغربية لأجل هذا لم تعترف «بتروجراد» بحكومة يعقوب خان عدة سنوات ولما رأى أن استقلال تركستان أصبح أمرًا واقعًا وأن حكومة يعقوب خان قوية منظمة اعترف بها وأرسلت إلى كاشغر وزيرًا مفوضًا، وأرسلت كاشغر وزيرها المفوض «ملا تراب» إلى بتروجراد واعترفت بها أيضًا حكومة بخارى وأرسل ملكها مظفر الدين خان ولى عهده عبدالملك خان إلى كاشغر وأرسل خديوى مصر إسماعيل باشا مندوبًا خاصًا إلى كاشغر سنة ١٢٨٩هـ، كما أرسل من

مصر إلى كاشغر مدافع وبنادق عن طريق الهند تحت نظارة الضباط يوسف وشركس يوسف وإسماعيل حقى بك، كما جاء سفير تركستان الشرقية إلى مصر مزودًا بأنفس التحف والهدايا إلى الخديو وفى مقدمتها مصحف مموه بالذهب الخالص وقد شاهدته بين مخلدات الفن ومعجزاته فى متحف دار الكتب الملكية المصرية. ومن هذا العصر أمر يعقوب خان أن يذكر فى خطب الجمعة اسم الخليفة عبدالعزيز خان وأن يضرب النقود باسمه.

وكان الإنجليز ينظرون إلى حكومة يعقوب خان بعين العطف والصداقة فقد كانوا يسمحون بنقل الأسلحة والضباط من تركيا إلى تركستان عن طريق الهند.

وقد أرسل اللورد «نورث بروك» نائبة المملكة فى الهند فى ذلك العهد وفدًا مؤلفًا من ثمانية أشخاص تحت رياسة المستر «فورستيك» إلى كاشغر فقدم سفير إنكلترا أوراق اعتماده إلى يعقوب خان على اسم جلالة الملك البريطانية فأبرم بين الحكومتين معاهدة تجارية على أساس مساواة الحقوق.

وقد اعترفت حكومة أفغانستان أيضًا بحكومة تركستان الشرقية، وكان ملكها فى ذلك العهد «شير على خان».

استمرت حكومة يعقوب خان من ١٢٧٠هـ إلى ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م). وكان عهده عهد الرفاهية والسعادة للبلاد. وهل من سعادة ورفاهية ألذّ من الحرية والاستقلال؟ وقد تقدمت الحياة العلمية والأدبية والاقتصادية المادية فى عهده تقدمًا كبيرًا حتى أن السفراء الإنجليز والروس الذين أرسلوا إلى كاشغر أظهروا دهشتهم من هذا التقدم السريع ومن انتظام حكومة يعقوب خان وجيشه.

ولم يقم يعقوب خان بالإصلاحات الحربية والسياسية فحسب ولكن همته كانت أبعد من ذلك مدى وأسنى مرامًا. فقد بنى

المدارس والقصور وأبدع فى تشييد العمارات الشامخة وأصلح ما دمرت الحروب المتوالية وعاد العمران إلى البقاع التى تركتها الغارات المتتابعة خرابًا بلقعًا وقاعًا صفصفًا، فأعاد لها النضارة والجلال، وألقى عليها ظل البهجة والسرور. ومن أعظمها شأنًا الجامع المشهور «عيد كاه» فى كاشغر وشيد كذلك قبة على ضريح «آباق خوجم» مؤسس أسرة الخوجوات كما شيد هنالك جامعة كبيرة، وأقام قلعة فى مدينة «كورلا» وعدة مساجد أخرى فى آقصو وكوجار وبوكور وغيرها.

واعترف ساسة العالم بعظمة يعقوب خان وبراعته السياسية والخدمات الكبرى التى أسداها إلى وطنه. قال السائح الإنجليزى «جيو آرد» الذى زار جلالته فى شهر فبراير سنة ١٨٧٠م لو لم تكن آسيا الوسطى فى حصار ضيق من عدة دول أجنبية فى عهد يعقوب خان لكان هو جنكيزخان الثانى فى فتوحاته.

وأيضًا يقر السائح الإنجليزى «شاودا» الذى قابل جلالته بعد «جيو آرد» بسنة واحدة بإعجابه ودهشته بمهارة يعقوب خان وسياسته وبقدر المعجزة الكبرى التى أظهرها فى الحروب.

كان الصينيون فى عهد يعقوب خان مشغولين بإطفاء نار الثورة التى اشتعلت فى ولاية يونان من الصين، فإن أكثر من كان فى هذه الولاية كانوا من الصينيين المسلمين فثاروا ضد حكومة بكين وأعلنوا استقلالهم وأسسوا حكومة تحت زعامة سليمان (دو – وين – شو) فى مدينة «تاليفو»، ولكن لم يمض زمن طويل حتى استولى جيش الإمبراطور عليها وضمها ثانيًا إلى الصين ثم وجه الصينيون أنظارهم نحو التركستان الشرقية، وأرادوا أن يختبروا طالعهم ثانيًا فأرسلوا إليها جيشًا عظيمًا سنة ١٢٩٣هـ وحاصروا مدينة أورومجى ستة أشهر ثم احتلوها واستمرت الحرب بين

الطرفين أكثر من سنتين وقد مات يعقوب خان فجأة فى أول أيام الحرب (١٧ مايو سنة ١٨٧٧م ١٢٩٤هـ) فأعلن حكيم خان نفسه ملكًا على التركستان. وقد قام خلاف عظيم بين أمراء البيت المالك فى من يخلف يعقوب خان، وسبب هذا وقوع حرب أهلية بينهم، فاستفاد الصينيون من هذه الحروب واحتلوا المدن الشمالية بعد حروب عنيفة ثم المدن الجنوبية وتمت فتوحاتهم سنة ١٢٩٥هـ باستيلائهم على كاشغر.

وبذلك استولت الصين على التركستان الشرقية كما استولى الروس على تركستان الغربية وبعض أجزاء تركستان الشرقية ثم قدم الروس إمارة إيلى إلى حليفتهم الصين سنة ١٨٨١م وبذلك تم استيلاء الصين على تركستان الشرقية كلها. ثم وقع الصدام بين روسيا وانكلترا سنة ١٨٩٥م وأصبح ولاية باميرمن نصيب روسيا وأقيمت الحدود بين روسيا وإنكلترا وبقيت بلاد الأفغان دولة تفصل بين ممتلكات روسيا وانكلترا. وبذلك انطفأ سراج من المجد طالما أشرق على الدنيا بنوره الوهاج ونشر على الدنيا أشعة المدنية والحضارة ولكننا نؤمن إيمانًا كاملاً ونعتقد اعتقادًا راسخًا أن تركستان ستعيد مجدها وتعود بمشيئة الله إلى مستقبل أعز من الماضى وإلى نهضة تغسل هذه الإهانة فى مشيئة الله فى ضمان الحق، وفى ذمة العدل وفى نهضة البلاد ويعود لها النصر والفوز والإسعاد.